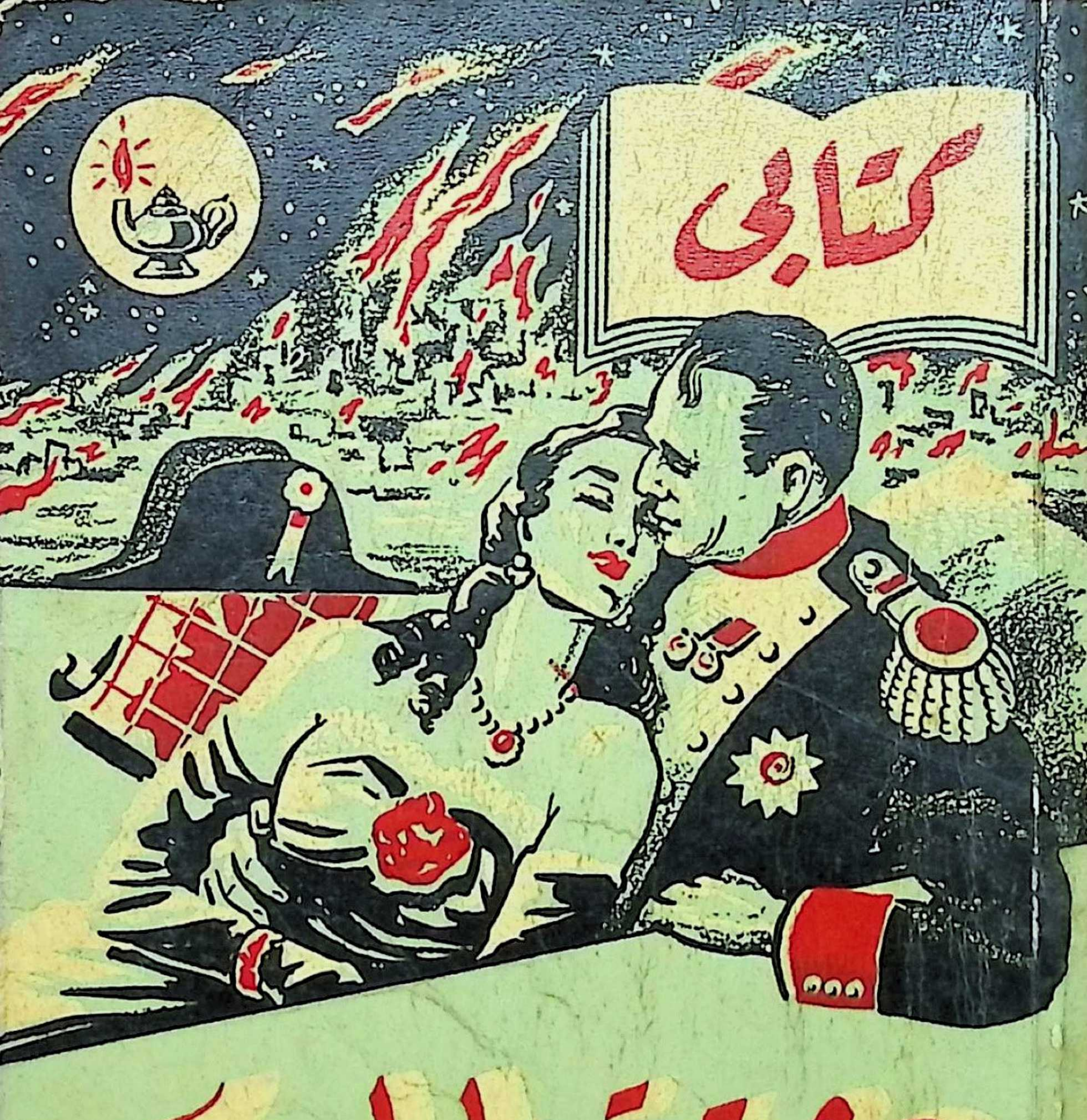

عشيقة نابليون

وكتب أخرى

حلمي مراد

٨ كتب
٨ قروش

عشيقة نابليون

وكتب أخرى

كتب للمحرر

عندما تحب المرأة (مجموعة قصص مصرية)	الناشر « كتب للجميع »
اوسكار وايلد (حياته ، وفنه ، ومأساته)	الناشر « البلاغ »
قلوب تحترق أو (حذار من الشفقة) لستيفان زفايج	الناشر « روايات الهلال »
انا كارنينا لتولستوى	الناشر « روايات الهلال »
رسول القيصر (ميشيل ستروجوف) لجول فيرن	الناشر « روايات الهلال »
ذات الرداء الابيض لويلكى كولنز	الناشر « روايات الهلال »
ابنة البخيل (أوجينى جرانديه) لبلزاك	الناشر « روايات الهلال »
الذئب الاغبر (مصطفى كمال)	الناشر « كتاب الهلال »

« كتابى » الاول : « خطايا الحب » وكتب اخرى	مارس سنة ١٩٥٢
« كتابى » الثانى : « قلب عذراء » وكتب اخرى	ابريل سنة ١٩٥٢
« كتابى » الثالث : «الهاربة من الجنة» وكتب اخرى	مايو سنة ١٩٥٢
« كتابى » الرابع : « حواء الجديدة » وكتب اخرى	يونيو سنة ١٩٥٢
« كتابى » الخامس : «احدب نوتردام» وكتب اخرى	يوليو سنة ١٩٥٢
« كتابى » السادس : «جريمة حب» وكتب اخرى	اغسطس سنة ١٩٥٢

كتابى

كتاب شهرى للقصة والثقافة الرفيعة

صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

المكاتبات : ١٨ شارع العباسيين ، مصر الجديدة ـ تليفون ٦٥٦٠٨

الاشتراكات : عن ١٢ عددا : مصر والسودان: ٨٠ قرشا . سوريا ولبنان: ١١ ليرة سورية او لبنانية . الحجاز والعراق والاردن: ١١٠ قروش صاغ

الكتاب السابع ـ سبتمبر ١٩٥٢

رمز الكتاب : مصباح الفكر عند الاغريق

مطبعة شركة الاعلانات الشرقية

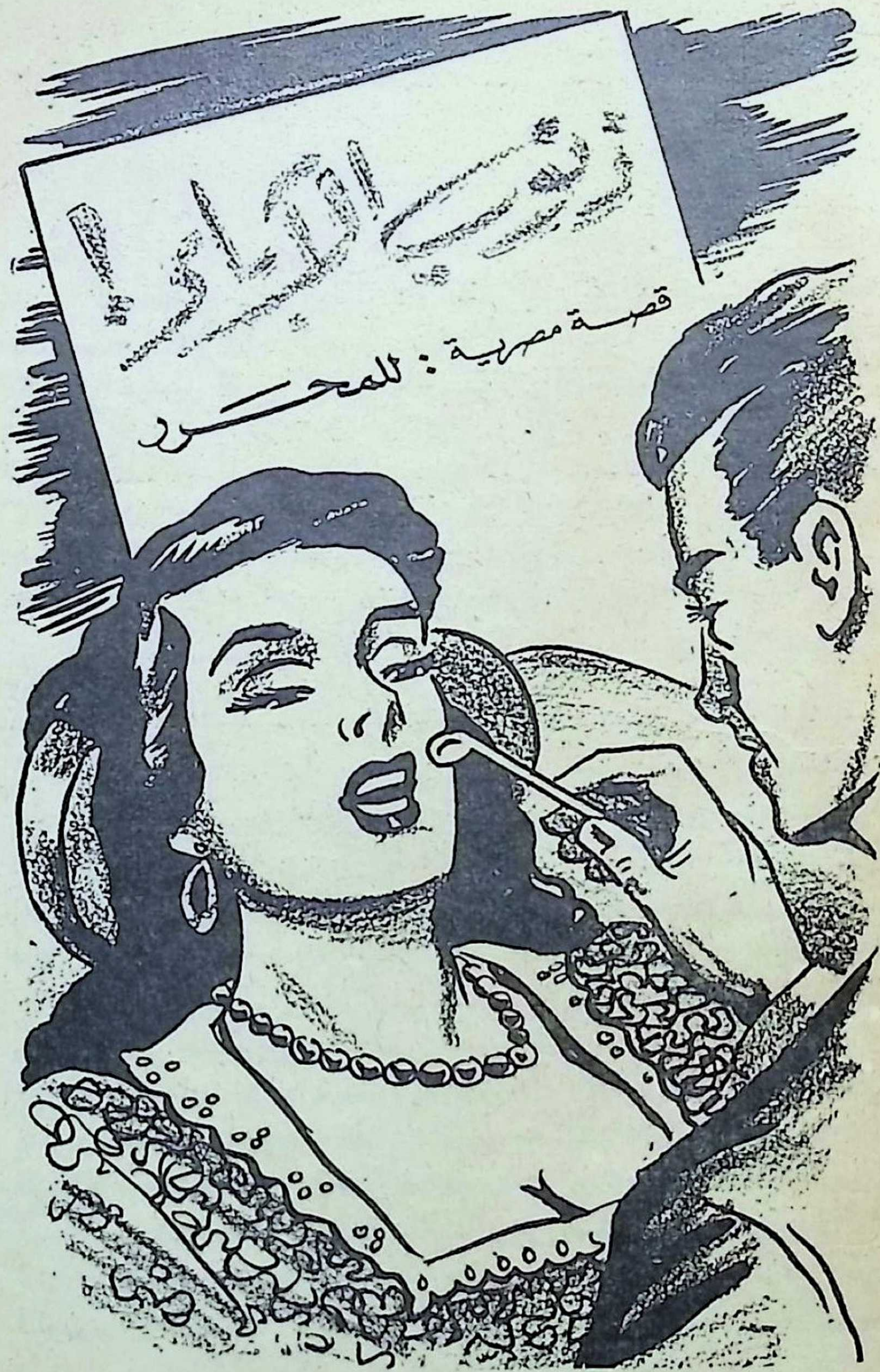
زوجي الأول!
قصة مصرية : للمحرر

٦

فى مقدور كل روائي أن يخلق من خياله حوادث أية قصة شاء ، الا هذه القصة ، هذه القطعة من الحياة ، التى لم يكن فى مقدور غير « القدر » أن يؤلف أحداثها !!

❖

كنا خمسة ، نسمر فى نادى مصر الجديدة ذات مساء، حين أديرت دفة الحديث الى خبر ورد فى صحف الصباح عن حادث مؤلم وقع لاحد نزلاء مستشفى الامراض العقلية ·· وساقنا الموضوع الى أحاديث متشعبة عن الجنون الطارىء ، والجنون الوراثى ، وضرورة تعقيم المجانين ضد النسل ·· فاشترك فى الكلام قاض كبير حدثنا عن اتجاه التشريعات الحديثة فى هذا الشأن ، وعن حدود تدخل الدولة فى حرية الافراد ·· واعترض آخر على فكرة التعقيم لمخالفتها لتعاليم الاديان وارادة الله ·· فقال ثالثنا المهندس المعروف (س·ف) انه ليس أفضل من فكرة الفحص الطبى للراغبين فى الزواج من أفراد الطبقات « الفقيرة » التى تتفشى بينها الامراض ··

وكان بيننا طبيب أسنان شاب لبث طوال الوقت صامتا ، فى هيئة من يغالب فى نفسه الرغبة فى الكلام ·· حتى بدا كأن العبارة الاخيرة قد « استفزته » ، فقال فى لهجة تنضح بالمرارة : « عفوا يا سيدى ·· فليست الطبقات الفقيرة وحدها هى الموصومة ·· ولا المجانين دون سواهم هم الاحق بالتعقيم!»

وسكت لحظة، ثم التفت الينا وهو يستطرد : « ··فسأذكر لكم قصة أليمة كنت شاهدها ، بل واحدا من أبطالها ، قبل أن أكون راويها :

❖

« منذ نحو عامين ، وأنا أتأهب للنزول من عيادتى ظهر ذات يوم ، أدخلت على فتاة حسناء ، فى نحو العشرين ، تشكو التهابا فى لثتها من أثر « بايوريا » أهمل علاجها ٠٠ ففحصتها، وشرعت فى معالجتها بالمس والتطهير اللازمين ، وأنا لا أملك نفسى من الاعجاب باتزانها وهدوء حركاتها وهى تغالب الالم البالغ الذى كنت أعلم اننى أسببه لها ٠٠ **ورغم انى قد اعتدت فى معاملتى لمريضاتى أن ألتزم حدود واجبى كطبيب ، الى درجة التزمت والمغالاة ، متجاهلا فيهن ما قد يصادفنى أحيانا من جمال بارع ٠٠ الا اننى فى هذه المرة نسيت نفسى أمام الفتنة المتجسدة أمامى فى قوامها الرشيق ، وثوبها الانيق ، ولفتاتها الخلابة وهى تزوى ما بين عينيها من فرط الالم !٠٠ وعبثا حاولت أن أغل عينى عن النظر الى محياها ٠٠ أو أغل فكرى وقلبى عن الاحساس بالغيرة ، البالغة حد الحسد لذاك السعيد الذى سيقدر له أن ينعم بهذا الجمال !**

وعند ما حان وقت انصرافها ، وسألتها عن اسمها كى أقيد فى مفكرتى موعد زيارتها التالية ، جاء لقب أسرتها العريقة المشهورة معززا لاحساسى المزدوج : اعجابى بها ، وشعورى بنوع من الكراهية الغامضة لرجلها المنتظر !

الرجل الذى لم أكن أتصور اننى أعرفه ، الا حين رأيتها معه فى احدى دور السينما بعد يومين ، فاذا هو صديقى الحميم « فهمى » !

أدركت فورا انه هو الذى أرشدها الى ٠٠ فعاتبته على انه لم يحضر معها ليوصينى بها !٠٠ وعندئذ غلبه حياؤه المعهود، فابتسم فى خجل وهو يعتذر بعذر واه، جعلنى أوقن انه تعمد ذلك كى يترك لى حريتى الكاملة فى تقدير الاتعاب٠٠ سيما واننى فهمت منه أن علاقتهما وثيقة ، وان موعد « الخطبة » قريب ٠٠

❖

وعند ما جاءتنى الفتاة فى الزيارة التالية ، كان كل همى أن أغالى فى الترحيب بها وامتداح صديقى لها ٠٠ كأنما لاكفر عن أنانيتى الاولى ،وأبدل فى قلبى احساسى المرذول باحساس آخر جديد ٠٠ بالفرح والغبطة !

وما كنت أقدر أن فرحتى لصديقى لن تدوم أكثر من لحظات ، الا حين استأنفت يومئذ العلاج ، وحانت منى لفتة الى حافة بعض أسنان الفك العلوى ٠٠ فتنبهت فجأة الى تآكل خفيف ، هو بعض أعراض مرض خبيث موروث فى الدم ، أيقنت فورا انه من تراث أبيها ، الذى قد يكون ورثه بدوره ٠٠ أو أصابته عدواه فى أعقاب ليلة عابثة !

غلب على مشاعرى الرثاء : لصديقى المهدد بنسل مريض، وللجمال البائس الذى أمامى !٠٠ تمنيت لو ان الفتاة قد ولدت قبيحة ، اذن لما كانت الضربة تبدو هكذا قاسية ، والقدر ظالما الى هذا الحد !٠٠

ولم ألبث أن أدركت حرج موقفى : بين اشفاقى على صديقى ورغبتى فى تحذيره ٠٠ وبين اشفاقى على الفتاة ٠٠ ثم واجبى كطبيب أقسم أن يصون أسرار مرضاه ، ويضن بها على الافشاء ٠٠ لاى مخلوق كان ، ومهما تكن الظروف !!

تملكتنى حيرة قاسية ، وشل ذهنى عن الاهتداء الى حل ٠٠ وخاصة ان تجربة سابقة كانت قد دلتنى على أن العلاج غير مأمون النتيجة !٠٠ فبقيت مترددا أياما ، والفتاة تداوم على الحضور ، وأنا أداوم على التفكير المضنى المستمر ٠٠ حتى لم يعد يجدى الانتظار ٠ صار حتما على أن أتحرك ، أن أفعل شيئا ٠٠ فلم أجد بدا آخر الامر من أن آخذ على عاتقى عبء مهمة بغيضة : أن أفرق بينهما ، وأنفر صديقى من الفتاة ، مهما يكن الثمن !

ولم تكن المهمة سهلة !٠٠ صرت أواجـــه فهمى فى كل مقابلة بحديث جديد مسموم: تارة عن مضايقات الزواج، وتارة عن عيوب مكذوبة أزعم له اننى اكتشفتها فى الفتاة !٠٠ هذا فى نفس الوقت الذى كنت أشفق فيه من أن أقابل نظراتهـا البريئة المشرقة ، أو أسمعها تتحدث عنه والامل يضىء محياها٠٠ فكنت أغض من بصرى ونفسى تذوب حسرات !

ورغم هذا فان أياما مرت دون أن تثمـر خطتى ٠٠ فألجأتنى حيرتى الى تجربة سلاحى المسموم من حده الآخر : فكرت أن أنفرها هى منه !٠٠ فأخذت أدس له فى أحـاديثى معها شتيتا من الطباع الكريهة ٠٠ وأنسب اليه طائفة من العلل الوهمية والاخلاق المرذولة ، آنا فى قالب المزاح ، وآنا فى قالب الجد ٠٠ واختلقت له ماضيا ماجنا بشعا ٠٠ وحاضرا أبشع !

٠٠ ولكن دون جدوى !٠٠ بل لقد ازداد الموقف حرجا وتعقدا ، وانقلبت مقاصدى على ٠٠ فبدأت ألحظ أن شكوكا ووساوس خطيرة قد أخذت تتسلل الى قلب كل منهما ، لا نحو الآخر ٠٠ بل نحوى أنا ! وان لم يظهر أن أحدهما قد أطلـع الثانى على ما كنت أبثه اياه ضد صاحبه !٠٠ وهـذا ما زاد المشكلة تعقدا ، ونشر بين ثلاثتنا جوا من التوتر الغامض الذى يقبض الانفاس ٠٠ فلا هو يشف وينكشف ٠٠ ولا هو يتراجع!

بل لعل التوتر قد تفاقم٠٠ حتى لم يعد فهمى يترك الفتاة تأتى وحدها ، بل صار يصحبها فى كل مرة ، ويدخل معنا غرفة العلاج !٠٠ وكان يشرد منا أحيانا ، أو أنشغل أنا عنه٠٠ وحين أتلفت أفاجئه ينظر الى بعينين جامدتين ، ألمح فيهما ظلال هواجسه ٠٠ وكأنه يريد أن يصل الى ضميرى !

وهكذا بت موضع رقابة صارمة ٠٠ أيقنت معها أنه قد أسلم قلبه لغيرة جارفة ، توشك أن تقتله ! ٠٠ وكان ذلك أكثر مما أحتمل ، فأبغضت نفسى ٠٠ وعذبنى أن أراه يتعذب !

وفيما أنا أبحث عن مخرج ، دخلت الفتاة على يوما ٠٠ وحدها !٠٠ ولم تكد تتهالك على أقرب مقعد حتى امتلأت عيناها بالدموع ، وتوجهت الى وهى تغالب انفعالها : « لماذا فعلت بنا ذلك يا دكتور ؟ انه يتهمنى بعلاقة معك !٠٠ وهو معـذور ، فانك قد أثرت شكوكه بلا مبرر ٠٠ بل أثرت شكوكى أنا فى نواياك ٠٠ اننى لا أفهم ٠٠ لماذا تريد التفريق بيننا ؟ ماذا فعلت لك حتى تكرهنى ٠٠ أى مأخذ لا يعجبـك فى !؟٠٠ أتشك فى انى سأسعده ؟ تكلم ٠٠ قل له اننى بريئـة ، وأن لا شىء بينك وبينى ٠٠ حرام أن تظلمنى ويظلمنى هو الى هذا الحد ! »

انسحق قلبى ، وأنا أرى بدنها يختلج من الانفعـال ، والكلمات تحتبس فى حلقها الذى غص بالدموع ٠٠ فلم أملك نفسى : وجدتنى أهدىء من ثائرتها جهد طاقتى ، ثم أفضى اليها بالحقيقة ٠٠ كاملة !!

وفيما هى شبه مذهولة، وأنا أمسح دموعها بمنديل ، وأربت على كتفها مواسيا٠٠ اذا بالباب يفتح فجأة ، ورأى صديقى على عتبته !

٠٠ وكانت الملابسـات كلها ضـدنا ، فألجم الارتبـاك ألسنتنا٠٠وران على المكان صمت رهيب ! »

وسكت الطبيب لحظة ، ثم قال وهو يخفى تأثره :

« وكان ذلك آخر عهدى بصديقى ٠٠ وبالفتاة !

« أما هو فلم أعد أعلم من أمره سوى انه قطع علاقته بها ، وانه لم يتزوج بعد ٠٠!

« وأما هى فلم أرها أو حتى أسمع عنها شيئا بعد ذلك !٠٠ وان كان طيفها وهى تنتحب فى زيارتها الاخيرة لى ، ما يزال ولن يفتأ يراودنى كلما ذكرنى بها شىء ٠٠ ودائما أجدنى أسائل نفسي ، فى خشوع وتسليم ، عن الحكمة الخافية عن عيوننا : حكمة شريعة الله التى تفتقد ذنوب الآباء فى الابناء ، جيلا بعد جيل !٠٠ ودائما يثب الى ذهنى خاطر ملح : ما أكثر ما يتخطى العقاب أسلافا آثمين ، الى خلف أبرياء ! »

❖

وفرغ الدكتور (٠٠٠٠) من قصته ، وتفرقنا ليلتها بعد حين ٠٠

ثم مضت شهور ، جمعنا خلالها النادى فى جلسات سمر كثيرة أخرى ٠٠ حتى كانت ليلة التقينا فيها كعادتنا ، ما عدا (س٠ ف) ٠٠ ثم دق جرس التليفون بعد قليل، فاذا هو يعتذر باضطراره الى ملازمة زوجته التى تنتظر مولودا فى تلك الليلة ٠

وخطر لاحدنا أن يمزح ، فأعرب عن خشيته أن يرث الطفل ضخامة أنف أبيه !٠٠ وتمنى آخر أن تجىء ملامح المولود مثل أمه ، التى « يقال » انها فاتنة الجمال !٠٠ ولم نعلق على هذا القول ، فان أحدا منا لم يكن قد رأى الزوجة من قبل ٠٠

وحين مررنا بالمستشفى فى الغد لنهنىء صديقنا ، أدهشنا انه خرج الينا فى الردهة وهو ممتقع الوجه ، ونظراته مفعمة بالمرارة!٠٠ ففسرنا ذلك بأنه متعب من الاجهاد والسهر ٠٠

.. حتى نشرت احدى الصحف فى صباح اليوم التالى، تحت عنوان (عجائب المخلوقات): ان سيدة من أسرة عريقة مشهورة ، وزوجة مهندس معروف ، ولدت طفلا ناقص الخلقة مشوه الوجه .. فلم يلبث أن لفظ أنفاسه بعد ساعات .. الخ

لكن الصحيفة لم تذكر ان وفاة الطفل لم تكن قضاء وقدرا، وانما غيلة وغدرا.. فقد وجدته الممرضة فى الصباح معرى من قماطه ، ومتروكا فى تيار هواء شديد !!

كما لم تذكر الجريدة أن الشبهة قد اتجهت الى والده .. وان النيابة تولت التحقيق !

❖

ولم يحوجنى الامر فى دفاعى عن الوالد المنكود ـ حين قدم الى القضاء ـ الى أكثر من سرد وقائع هذه المأساة !

أبواب «كتابى» الجديدة

عزيزى القارىء ...

وعدتك فى الاعداد الماضية بادخال خمسة أبواب جديدة على «كتابى» ، هى : الباب المتغير Miscellaneous ، وقصص التاريخ ومآسيه ، وشهيرات النساء ، وأعظم الخطب ، ولكل رسالة قصة ... وقد وفيت بوعدى فقدمت لك ابتداء من العدد الاسبق باب « قصص التاريخ ومآسيه » .. ثم قدمت لك ابتداء من العدد الماضى الباب المتغير ، أو باب « كتاب الشهر » .. واليوم اقدم لك فى هذا العدد باب « شهيرات النساء » .. وموعدنا فى الاعداد القادمة باذن الله كى أقدم لك بابى :

لكل رسالة قصة

اشهر الرسائل المتبادلة بين العظماء وقصة الظروف التى احاطت بكل منها : رسائل لنابليون ، جوته ، ليدى هاملتون ، مدام دى سيفينيه ، مدام دى بومبادور ، الامبراطورة كاترين،عشيقة جان جاك روسو ، لوردبيرون ، بلزاك ، هاينى ، بودلير ، بسمارك ، ميكيافيللى، جورج صاند ، دانتى ، تشيكوف ، كبلنج ، لورنس بلاد العرب .. الخ

أعظم الخطب

خطب شائقة لاعظم خطباء العالم القديم والحديث ، فى كل موضوع : فى السياسة والوطنية ، السلم والحرب ، الادب ، والفن ، والعلم ، والاختراع ، والدين ، والفلسفة ، وتابين العظماء ، والدفاع عن النفس لنفى تهم ظالمة ، وخطب العظماء المحكوم عليهم بالاعدام ، على أثر صدور الحكم .. الخ .. الخ

اقرأ فيه خطبا لهؤلاء : بركليس ، سقراط ، ديموستين ، كاتو ، هانيبال ، شيشرون ، يوليوس قيصر ، مارك انطونى ، كرومويل ، فردريك الاكبر ، كامى ديمولان ، ميرابو ، دانتون ، مارا ، روبسبير ، لنكولن ، رابندرانات تاغور ، غاندى ، هتلر .. ومن عظماء مصر : محمد فريد ، مصطفى كامل ، سعد زغلول .. الخ .. الخ

الخالدات

شهيرات النساء

عزيزي القارىء ...

في الاعداد السابقة من « كتابى » قدمت لك فى بابى « أنبياء الوطنية » و « عظماء فى غير السياسة » قصص حياة : « ديفاليرا » .. و «غاريبالدى» .. ثم « لويس باستير» .. و « اميل زولا » .. و«ماركونى» .. و«تشايكوفسكى» .. من أعلام السياسة ، والطب ، والادب ، والاختراع ، والموسيقى ..

واليوم اقدم لك فى هذا الباب «الشقيق» قصة امراة من شهيرات النساء ، هى «فلورنس نايتنجيل» التى يدين لها العالم بارواح الملايين من البشر منذ منتصف القرن الماضى الى اليوم .. وسيظل يدين لها بالبر والرحمة الى ابد الدهر !

وفى الاعداد القادمة من كتابى اعتزم ان اقدم لك بعون الله فى هذا الباب باقة عطرة من سير نساء خلدت اسماؤهن وتفوقن على الرجال ، فى شتى ميادين الخلود والتفوق ، ومنهن :

كليوباترة .. تيودورا .. جان دارك .. مارى ملكة اسكتلندا .. كريستينا .. مدام دى بومبادور .. شارلوت برونتى .. نيل جوين .. «جورج» اليوت .. اليزابيث باريت براونج .. سارة برنار .. هيلين كيللر .. ايزادورا دنكان .. مدام شيانج كاى تشيك .. مسز روزفلت .. الخ

الملاك الأبيض

فلورنس نايتنجيل

قصة حياتها وكفاحها فى سبيل الإنسانية

هذا الكتاب ...

عندما صدر هذا الكتاب الجديد منذ بضعة شهور ، وصفته ناقدة جريدة (نيويورك هيرالد تريبيون) بأنه « من أهم كتب السيرة التى صدرت فى القرن الحالى ! » .. ثم انعقد اجماع النقاد على امتداحه فى كافة البلاد الناطقة بالانجليزية .. فان الصورة التى تطالعك لـ « فلورنس نايتنجيل » من بين صفحاته هى صورة خلابة ، واضحة المعالم ، لامرأة كانت معقدة الشخصية الى أبعد حدود التعقيد : تجمع بين الانفعال العاطفى المتأجج ، والعناد ، والتشبث بما يؤكد شخصيتها ، والتعصب لفكرتها ، والقدرة الخارقة على القيام بالاعمال الادارية فى مهارة ولباقة .. كل ذلك بالرغم من أنها كانت .. أنثى جميلة جذابة !

وفلورنس امرأة اذا ذكر اسمها لم يذكر الناس أشعار الغزل ، أو مباريات الجمال ، أو حلبة الرقص . كلا ! بل يذكرون الجيوش الحديثة فى حومات القتال !.. فاسم فلورنس مقترن فى الاذهان بالقسم الطبى الحربى فى الجيوش العصرية ، فهى التى أقامت فن التمريض الحديث على دعائمه الثابتة ، وهى التى جعلت من المستشفيات العسكرية المتنقلة والمركزية هذه المؤسسات النافعة الجزيلة الفائدة كما نعهدها ، بعد ان كانت قبل ثورتها الحاسمة مجرد « مرحلة تحضيرية » للمقبرة !

واذا وقع بصرك أيها القارىء اليوم على ممرضة أوحكيمة فرأيتها حسنة المظهر ، نظيفة الهندام ، عذبة الحديث ، رقيقة الشعور ، يفيض مسلكها مع المرضى حنانا ورفقا ، ولها وقار مستحب ، واقبال على القراءة والحياة العقلية الراقية ، فاعلم أن الفضل فى هذا كله لصاحبة هذه الترجمة « فلورنس نايتنجيل » ، فهى التى جعلت مهنة التمريض كما ترى ، بعد أن كانت الممرضة فى القرن الماضى نصف عاهر ، تدمن الخمر ، وتتبذل فى حديثها ومعيشتها ، وتكاد تحترف الفجور ، لانها كانت من طبقة تعادل طبقة المومسات ، والخادمات فى الحانات والمواخير ..!

ولم تكن صاحبة هذا الانقلاب غير «فلورنس» ، التى يصور هذا الكتاب مراحل حياتها الحافلة التى جاوزت التسعين عاما ..!

اسم مبتكر ٠٠٠

◆ كان بدعا أن تدعى فتاة انجليزية باسم «فلورنس» ، فهو فى الاصل اسم مدينة من مدن ايطاليا العريقة ٠٠ ولكن التجديد كان سمة العصر فى سنة ١٨٢٠ ٠٠ وكان والداها ـ « فانى » و «وليم» نايتنجيل ـ يواصلان تجوالهما فى أنحاء أوربا منذ زواجهما (فى عام ١٨١٨) ، حين رزقا أثناء اقامتهما فى ايطاليا بابنتهما الثانية ، وكان مولدها بمدينة «فلورنسا» ، فأطلقا عليها اسم مسقط رأسها ٠٠ **فكانت أول فتاة فى انجلترا ، بل فى العالم أجمع ، يطلق عليها هذا الاسم !٠٠ ولكن ، لم ينقض نصف قرن من الزمان على تلك التسمية ، حتى أخذ آلاف من البشر يطلقون هذا الاسم على بناتهم ، تيمنا باسم الطفلة التى ذاع صيتها فى كافة أنحاء العالم ، وخلد اسمها فى سجل شهيرات النساء ٠٠!**

أبواها

٠٠ ومع ما امتاز به والداها من ظرف وذكاء ، فانهما لم يكونا على وفاق تام : فأمها «فانى» كانت امرأة بارعة الجمال ، سخية الكف ، مبذرة متلافة ، شديدة التعلق ببهارج المجتمع ، طموح الى الظهور فى الحفلات واقامة المآدب ٠٠ بعكس زوجها «وليم» الذى كان رغم ثرائه رقيق الحاشية ، محبا للقراءة والخلوة الى كتبه الحبيبة ٠٠!

ولما بلغت فلورنس تمام العام الاول من عمرها غادرت أسرتها ايطاليا عائدة الى بريطانيا ، حيث بنوا دارا ريفية فى اقليم «دربيشاير» ، ثم اشتروا بعد ذلك بقليل دارا أرحب منها وأفخم فى «هامبشاير» ، لان السيدة «فانى نايتنجيل» وجدت أن البيت الاول أصغر مما ينبغى لمقامها ، اذ لم يكن يضم أكثر من خمس عشرة حجرة للنوم !

فهى اذن أسرة واسعة الثراء ، أتاح ثراؤها لفلورنس أن تنشأ نشأة ناعمة ، تلهـو بين الرياض الفيحاء ، وتمتطى الامهار الصغيرة ، وتحف بها الكلاب الثمينة المدربة على الصيد والقنص ، وتقتنى لمتعتها ولهوها أسرابا من الطيور المغردة والقطط الجميلة الفراء !

لم تكن سعيدة !

◆ بيد أن هذا كله لم يستطع أن يهيىء للطفلة «فلورنس» السعادة التى كانت ترجوها ، فقد كانت حادة الطبع ، غريبة الاطوار ، فيها عناد ، وفى عينيها ماينم عن تعاسة مكتومة .. وكأن هذه الصبية التى لم تتجاوز السادسة من عمرها كانت تشعر منذ نعومة أظفارها بأن حياة الترف التي تحياها جديرة بأن تثير السأم والاشمئزاز ، لاأن تشيع البهجة والحبـور فى نفسها البريئة !

ومنذ البداية كانت فلورنس «بنت أبيها» لا «حبيبة أمها»، فهى تعبد والدها ، ولكنها تحس فى والدتها نقصا فى الطاقة الوجدانية .. وكان يدهشها أن ترى أختها الكبرى « بارت » مستنيمة الى هذه الحياة الفارغة ، فى حين تتحرق هى شـوقا الى شاغل تملأ به فراغ حياتهـا التى تدور عـلى التفاهات والسخف !

ولاشك أن المرء ابن بيئته الى حد كبير ، لهـذا ينبغى أن نعتبر بيئة فلورنس ذات أثر كبير فى تكوين شخصيتها الفذة . فماهو لون العصر الذى عاشت فيه ؟

انه لون العاطفية الصارخة التى تصل الى حد التبذل أو التكلف المائع .. والتى نجدها غالبة يومئذ على الادب ، وعلى الفنون كافة ، وعلى أساليب النساء اللواتى يردن أن يقال عنهن أنهن «تقدميات» أو راقيات !.. فكل امرأة ، ولو كانت زوجة أو أما عادية ، تحاول جهدها أن تقلد بطلات روايات «بيرون»

فى رهافة الاحساس : فموت قريب بعيد صلة الرحم ، أو وفاة جار مسن ، أوسوء تفاهم عادى بين الاصدقاء ، يكفى جدا لنوبة «اغماء» تحتاج الى قوارير «النوشادر» والعطور ، والى البقاء ساعات فى جو من الظلام والسكون ، حتى تنجلى النوبة بسلام عن أعصاب السيدة ، التى قد تكون فى بدانة فرس البحر !

وكانت « موضة » العصر أن تتنافس النساء فى المباهاة بحساسيتهن المفرطة ، ورقتهن البالغة !٠٠ فلم يك عجيبا بعد هذا أن تكون سيدات آل نايتنجيل من هذا الطراز بحكم مركزهن الاجتماعى وتربيتهن الراقية : فكانت الام «فانى» والبنتان «بارت» و «فلورنس» ، من المعدودات فى زمرة «ذوات الرقة الزائدة عن الحد» ٠٠ ومع هذا فقد عمرت «فانى » الى سن الثانية والتسعين ، وعمرت فلورنس الى سن التسعين ، و «بارت» الى الخامسة والسبعين !

مستودع الاسرار

◆ وتعودت فلورنس أن تستودع أسرارها قصاصات من الورق تسطر فيها خواطرها اليومية ٠٠ ولم تكن تتحرى فى هذه القصاصات أن تكون من شكل معين، فهى تارة تستخدم أوراق التقويم القديمة ، وتارة ظهور الخطابات الواردة اليها ، أو هوامش كراسات المدرسة ٠٠٠ وقد تخلف عن هذا تراث ضخم من القصاصات المتباينة الاشكال والالوان ، لا تزال محفوظة الى الآن ٠٠٠

ومن أهم أسرار طفولتها وصباها ، ماورد فى تلك المذكرات وهى بعد فى سن السادسة عشرة : « فى السابع من فبراير سنة ١٨٣٧ كلمنى الرب ودعانى الى خدمته !» .. فقد سمعت ـ مثلما سمعت قبلها « جان دارك » ـ صوتا خارجيا يناديها بما فى سريرتها . بيد أنها لم تكن تدرى كنه الخدمة التى يريدها الله أن تتطوع لها ـ فقد كانت مهمة التمريض بعيدة عن تفكيرها كل البعد فى ذلك الحين !

ولا نحسب المجال قد اتسع لفلورنس بعد ذلك لتتقصى سر ذلك الصوت الغامض ، لانها أقلعت مع أسرتها فى رحلة طويلة استغرقت سنتين ، طافوا فيها أقطارأوربا . فلما انتهت تلك الرحلة التى قصد بها اتمام ثقافة الفتاتين ـ بارث وفلورنس ـ وتربيتهما وتنمية ذوقهما ، قدمتا للمجتمع رسميا فى مدينة لندن . فكانت هذه كلها مناسبات سعيدة سارة ، أشاعت المرح فى نفس فلورنس ، ولاسيما حين صادفت نجاحا فى مجتمعات العاصمة .. واستغرقت مشاعرها فى هذه الاثناء عاطفة جديدة ، فقد تعلقت بالرقص ، ووجدت فيه متنفسا طيبا لحيويتها الدافقة .

وصادف هذا النجاح الاجتماعى هوى فى نفس والدتها «فانى» ، فقد أذكى ما كانت تضمره فى صدرها من آمال عريضة فى مستقبل فلورنس الزاهر ، من زواج لامع وما الى ذلك . بيد أن سريرة فلورنس كانت بعيدة كل البعد عن السكينة والطمأنينة : فهذا الصوت الغامض ، صوت الله ، الذى سمعته منذ سنوات معدودات وهى فى السادسة عشرة ، لماذا انقطع عنها ؟ هل جفاها ربها ونبذها ؟

لقد بدا لها أن ذلك هو الجواب البديهى ، فهى ولاشك لم تعد جديرة بتلك القربى .. ولعلها قد هبطت عن سموها وصفاء نفسها فارتفع «الوحى» !

وفتشت الفتاة فى أعماقها ، فوجدت أنها قد أحبت اللهو أكثر مما ينبغى !٠٠ واذن فلابد لها من أن تدير ظهرها له ، وتروض نفسها على الخلاص من ربقة كافة المتع والمسرات ، فلا تتعلق الا بالجد والخير ، كى تسترد صفاءها وتعود الى حظيرة الرضوان ٠

وكتبت فى هذا الصدد فى مذكراتها السرية : « ان أول مايجب أن أحاربه فى نفسى هو حب الظهور والتألق فى المجتمعات ٠٠!»

يطلب يدها ٠٠٠

◆ وفى أوائل سنة ١٨٤٢ – وهى فى الثانية والعشرين – لقيت فلورنس ذلك الرجل الذى قدر له أن يكون من أشد خاطبيها وفاء وأعظمهم اغراء لها ، المدعو «ريتشارد مونكتون ميلنز » ٠ **كانت سنه فى ذلك الحين ٣٣ سنة ، وكان ذامكانة ملحوظة فى المجتمع اللندنى ، يبشر حاضره بمستقبل سياسى زاهر ٠٠ وهو الى هذا وذاك من المعنيين بالخدمات الاجتماعية وأعمال البر ٠٠ وكان قد رأى فلورنس فأحبها من أول وهلة ! ٠٠ بيد أن فلورنس كانت قد بدأت بالفعل اتجاهها الجديد ، بعد أن تكشفت لها أهوال حياة الفاقة والمذلة التى يعيش فيها فقراء لندن ، فى خارج المحيط المترف الذى تعيش فيه هى وأمثالها من السراة ٠٠٠**

وبدأ ادراكها لبشاعة الفوارق الاجتماعية فى لندن وقتئذ عندما زارت بيوت عمال النسيج والغزل فى المنطقة المحيطة ببيت أبيها فى «دربى شاير » ، فاذا فقر وقذارة ، وادمان للخمور ، واسفاف شنيع فى الخلق ، نتيجة لانخفاض مستوى المعيشة وعدم توفر وسائل الحياة النظيفة الكريمة ٠ ومنذتلك الزيارة أخذت فلورنس تتردد على هذه الاكواخ بانتظام ،

وترهق والدتها بطلب تدبير المأكل والعقاقير الطبية والثياب لهؤلاء المرضى والفقراء ..!

فتــوى ..!

◆ وفى شهر يونية من سنة ١٨٤٤ زار بريطانيا أحدكبار المهتمين بأعمال البر فى العالم ، وهو الامريكى «صـــامويل جريدلى هاو » ، فسألته فلورنس ذات يوم :

ـ هل تعتقد أنه لايليق بشـــابة انجليزية أن تقف جهودها على البر والرحمة فى المستشفيات ، على غرار ماتقــوم به الراهبات الكاثوليكيات ؟

فأجابها الرجل فى صراحة واخلاص :

ـ قد يكون هذا غير مألوف فى بلدكم ، ولكنى أقول لك مع هذا : «أقدمى عليه ولاتترددى !»

واستراحت فلورنس لهذه «الفتوى» ، ولكنها لم تجسر على ذكر كلمة «المستشفى» على لسانها عاما كاملا ، لعلمهـــا باستحالة سماح أهلها لها بشىء من هذا القبيل ! بيد أن هذا لم يمنعها طبعا من تمريض العمال المرضى فى أكواخهم تمريضا جديا متصلا ...

ولم تكن هذه الفترة بلا جدوى فى حياتها ، فقد تعلمت منها بالتجربة أن التمريض مهنة ينبغى أن تكون لهـــا أصول فنية دقيقة ، وانها يجب أن تتلقن هذه الاصول تلقينا منظما ! .. وهنا راعها أن تكتشف أن التمريض ليس له فى انجلترا معهد خاص ولابرنامج أو مجال لدراسة منظمة من أى نوع ، فكل ما كان يطلب توفــره فى الممرضــة أن تكون «أنثى» ... باعتبار أن المفروض فى الممرضة للقيام بواجبها أن تكون كتلة من الحنان وكفى .. فأين هذا مما تعلمته فلورنس بالتجربة من أن الحنان لايكفى ، وأن المطلوب دراية مهنية خاصة قد تلزم

لها حصة من «القسوة» فى سبيل القيام بالواجب على الوجه الاكمل ؟!

كانت المستشفيات مواخير ٠٠ !

◆ وأخيرا حزمت فلورنس أمرها على الذهاب الى مؤسسة «سالسبيرى» للتمريض ، التى لاتبعد الأميالا قليلة عن البيت ، فاذا بالقيامة تقوم ، واذا أمها تتهمها بأنها لابد على صلة غرامية بجراح من جراحى ذلك المستشفى المنحطين الاراذل !٠٠ أما أختها بارت فاستسلمت لنوبات اغماء متتابعة ، فى حين ارتحل الوالد الى لندن مشمئزا متشائما من المستقبل المظلم الذى يخبؤه القدر لذريته على يد الجيل الجديد من الفتيات العصريات !

والواقع أن آل نايتنجيل كانوا محقين في ثورتهم ، فالمستشفيات فى سنة ١٨٤٥ كانت أمكنة قذرة كالمواخير ، تشيع فيها رائحة عفونة تمجها النفس وتعافها ٠ ويندر ألا يصاب بالقيء والغثيان من يدخلها لاول مرة ٠٠ والاسرة والملاءات آية فى القذارة ، فالنظافة غير معروفة على الاطلاق ، والعادة المألوفة أن يوضع المريض الجديد فى الاغطية والملاءات التى كان ينام فيها المريض السابق بدون تغيير !

وأما الممرضات فكن – كما ذكرنا سالفا – ضربا من ضروب المومسات المتبذلات ، ينتهكن حرمة الآداب مع المرضى والناقهين علانية ، لان الاسرة جميعها متجاورة متلاصقة !٠٠ وهكذا لم يكن يخطر بالبال أن تعمل سيدة محترمة ذات سمعة تحرص عليها ، فى مستشفى ٠٠ لان وجودها معناه أنه مرخص للمريض الذى به بقية من العافية أن يمد اليها يده بالرغبة الحيوانية دون ماتحرج !

ولكن فلورنس لم تأبه لهذا كله ، وصممت على أن تغدو ممرضة ٠٠ فراحت تدرس بامعان التقــارير الرسـمية عن الامراض ، وعلم الصحة التامة ، ونظم المستشفيات ٠٠ كانت تستيقظ قبل الفجر فتوقد الشمعة وتظــل تدرس وتدون الملاحظات بغير كلل، حتى يدق ناقوس الافطار فتنزل الى قاعة الطعام كأنها استيقظت من نومها توا ، وتضطرب فيماتضطرب فيه أختها وأمها من مهام البيت والمجتمع سحابة النهار وشطرا من الليل ٠٠!

وكانت تكتب باستمرار الى باريس وبرلين كى يوافوها بتقارير المستشفيات ودروس علم الصحة الوقائية ، ودأبت على ذلك مدة طويلة حتى أضحت فيمابعد أعظم خبراء أوربا فى تلك الموضوعات ٠٠!

وهكذا بدأت طريقها الشاق ، وتعين عليها أن تطرح من ذهنها كل مايتعلق بالحب أوالزواج ، بل والصداقة ، فىسبيل غايتها العظمى !٠٠ بيد أن قلبها كان لايفتأ ينازعها الى الشاب الوسيم «ريتشارد ميلنز» الذى ظل يلاحقها بالحاح ٠ ولاسيما أن والدتها كانت لاتكف عن ارهاقها بصدده ، غاضـبة تارة ومتوسلة تارة أخرى ٠٠ ولكن بغير جدوى !

وما أن حلت سنة ١٨٤٧ حتى كان هذا الجهد المتصل قد نال من صحتها فمرضت ، ولم تبل من ضعفها الاحين تمكن بعض الاصدقاء من اقناع أمها بأن تصحبهم فلورنس الى روما للنزهة والاستجمام ٠

◆ وفى روما قدر لها أن تقابل لاول مرة « سيدنى هربرت » ـ وزوجته ـ وأن تنشأ بينهما مودة حميمة ، وأن يكون لـكل منهما تأثير عميق على حياة الآخر ٠ وحين عاد ثلاثتهم الى لندن كان الزوجان واسطة لتعـريف فلورنس بالكثيرين من رجال السياسة والقلم من أصحاب النفوذ فى الدولة ، الذين كانت

فلورنس فى حاجة الى تعضيدهم لمشروعاتها وآمالها الاصلاحية العريضة ..

وبعودتها الى لندن استأنفت حياة الدراسة الخفية ، فما عتمت أن مرضت مرة أخرى فى سنة ١٨٤٩ .. وزاد من وطأة المرض عليها أن «ميلنز» صار أشد الحاحا عليها وارهاقا لها بطلب الجواب الحاسم: هل تقبله زوجا لها أم ترفضه نهائيا ؟.. فحزمت فلورنس رأيها ، ورفضته !!

ولم يكن ذلك القرار من الهينات على نفسها ، لانه يعنى فى الغالب اضرابها عن الزواج الى الابد ، واختيارها طريقها الذى رسمته لنفسها اختيارا لا رجعة فيه !

ويدلنا على مبلغ ماتكبدته فى هذا الصدد ، ماورد فى مذكراتها بعد ذلك : « لم يكد يمضى يوم منذ رفضت الزواج منه ، لم أتذكره فيه ، وأفكر فى شخصه المحبوب ، ولم يقطعنى عن هذا التفكير انهماكى فى العمل وتكاثر المشاكل فيما بعد على كاهلى تكاثرا يقض مضجعى .. فهو « رجلى المعبود » ..! »

لقد كانت تحب ميلنز ، ولكنها كانت تحب رسالتها المقدسة أكثر من ميلنز !

وناهيك بغضب أمها ، واغماء أختها !.. فقد ساءت حال «بارت» حقيقة ، حتى اضطرت فلورنس الى ملازمتها ستة أشهر ، تاركة كل شىء فى سبيل ارضائها ، الى أن قررت فجأة

ـ بتشجيع من أصدقائها المؤمنين برسالتها ـ أن تتخلص من ذلك الرق ، بالاقدام على خطوتها الجريئة : السفر الى ألمانيا للالتحاق بأحد معاهد التمريض الكبرى فيها ٠٠!

مرحلة جديدة ٠٠٠

◆ وفى ذلك المعهد وجدت فلورنس ماكانت تحلم به من كفاية ونظافة ودراية ، وروح عالية ، واخلاص للعمل ٠٠ وتبين لها أن تلك الرائحة العفنة التى كانت تسمى فى انجلترا «رائحة المستشفى » ، لملازمتها للمستشفيات ، ليست صفة ملازمة لها فى الواقع ٠٠ فالمستشفيات فى ألمانيا نظيفة طيبة الرائحة ٠٠ والممرضة هناك لايطلب منها أن تؤدى للمريض «المرجل» أية «خدمة» لاتستطيع أن تؤديها لشقيقها مثلا !

وهكذا عادت فلورنس من هناك ورأسها كخلية النحل لكثرة مافيها من المشروعات الحماسية ٠٠ مما اضطر أهلها الى التضييق عليها ، فكان ذلك غاية السخف ، **لانها يومئذ كانت فى الثلاثين من عمرها ، وكانت لها صديقات وأصدقاء من أعظم أهل زمانها، مثل : السياسى الكبير اللورد بالمرستون، والاديبة جورج اليوت ، والشاعرة اليزابث براونج ٠٠ الخ ـ فلم يكن من اللائق أبدا أن تعامل معاملة صغار التلميذات ، الى حد مراقبة رسائلها ! ٠٠ تلك المراقبة التى أفزعت أصدقاءها المؤمنين بمواهبها الخارقة ٠**

وفى هذه الاثناء ظهرت على أختها أعراض المرض العقلى ، فقرر الطبيب أن علاجها الوحيد فى أن تترك وشأنها ، حتى تتعود الاعتماد على نفسها بدون رعاية من أحد ، ولاسيما من أختها فلورنس ٠٠

وبانتهاء ارتباطها بأختها بسبب مرضها ، انفصمت آخر عروة تقيد فلورنس بأسرتها ، فبدأت فى الانفصال عن أهلها والانفراد بحياتها المستقلة ٠٠٠

فترة الاستعداد ..

◆ وفكرت أول مافكرت فى قضاء شـــهر فى باريس تزور فيه المستشفيات وتشاهد كيف يجرى الاطباء هناك جراحاتهم. ثم ارتحلت الى أقاليم فرنسا المختلفة لتقوم بدراســـــة مقارنة فى هذا الباب ، اتبعتها برحلة الى ألمانيا ومقاطعات بريطانيـــا النائية .

وفى أبريل سنة ١٨٥٣ رشحت فلورنس للاشراف عـلى دار لتمريض السيدات . فكانت المفاوضات بينها وبين اللجنة القائمة على تلك الدار تصادف عقبات شتى ، بسبب صـعوبة «هضم» عضوات اللجنة لفكرة خضوع سيدة من الطبقة المترفة لاوامرهن ، ولو كن جميعا من سيدات المجتمع ، ذلك أن الرقى يتنافى مع تقبل الاوامر فى عرف ذلك العصر !.. يضاف الى هذا أنه لم يكن من المعقول أن تقوم سيدة راقية على « تمريض» امرأة أقل منها مقاما . ولم يكن من المعقول - من باب أولى - أن تحضر الفحص الطبى والعمليات الجراحية ، بماتنطوى عليه من دواعى الاشمئزاز والتقزز ..

لكن المفاوضات انتهت بقبول فلورنس فى المنصب الشاغر، وتخويلها السلطة الكاملة ، على أن تحضر على حسابها الخاص وكيلة متقدمة فى السن كى تحفظ التوازن مع شباب المديرة الصغيرة وحسنها « المزعج » الخطر !

وطبيعى ان هذا الخبر وقع على الاسرة وقع الصاعقـة ، ولكن الاب رغم استيائه تفضل بتخصيص ٥٠٠ جنيه سنويا لابنته العاقة المتمردة !

◆ وكانت ادارة فلورنس لهذه المؤسسة بمثابة فترة اعداد كامل لها ، فقد راحت تمطر اللجنة بتقارير مطولة ، ومطالب اعتبرت فى زمنها « ثورية » ، من قبيل ذلك صنع مصعد للطعام، وأجراس كهربائية مرقومة على باب ممرضة كل طابق ، بحيث

تعرف من أين يأتيها الطلب فى كل مرة ٠٠ الخ

ثم وجهت المديرة الناهضة معظم عنايتها الى مراقبة المطبخ والمغسل ، وهى أمور كان المظنون انها لا تثير اهتمام مثلها ، لان المفروض فيها أن تهتم بالمريض شخصيا ، كأن تخفف ألمه أو تسليه ٠ أما هى فقد اعتبرت الاعمال المنزوية عن مسرح العواطف الصارخة بمثابة الاساس الاول لكل تمريض مثمر ٠٠ فنم ذلك عن مواهبها الادارية وعقلها العملى ، وانها تصدر فى تصرفاتها عن تفكير متزن مدروس لا عن طاقة انفعالية محبوسة!

ويعزى اليها فى ادارتها لتلك الدار فضل عظيم آخر ، هو انها أصرت على جعلها دارا انسانية عامة ، لا تحرم من خدماتها امرأة بسبب جنسها أو ديانتها ! ولم يكن ذلك الاصرار سهلا فى تلك الايام ، فقد لقيت فى سبيله معارضة شديدة ، ولكنها انتصرت فى النهاية ٠٠!

وقد أكسبها حزمها وشدتها كراهية المرؤوسين القدامى القذرين ، فاستقالوا ، أما مريضاتها فكن يعبدنها عبادة ، لما لمسنه من تغير كلى فى نظام الدار ، وعطف قلبى عليهن من جانبها ، وتغلغل فى دراسة مشكلاتهن الخاصة ، ومعاونتهن على حلها ، بل وامدادهن بالمال من جيبها الخاص عند اللزوم!٠٠ لكن فلورنس لم تكد تفرغ من تنظيم الاعمال فى الدار على ما تروم ، حتى زهدت فيها ، ورأتها أصغر من أن تتسع لهمتها، فراحت تفكر فى عمل أكبر ٠٠!

العمل الاعظم

◆ وكأنما كانت على موعد مع القدر ، ففى تلك الأثناء ـ سبتمبر سنة ١٨٥٤ ـ دخلت انجلترا وفرنسا الحرب ضد روسيا ، بعد تحالفهما مع تركيا ـ تلك الحرب التى عرفت فى التاريخ باسم « حرب القرم » ـ فكان عمل فلورنس السابق فى تلك المؤسسة النسوية للتمريض والنقاهة أشبه بمرحلة

اعداد تمهيدية لذلك العمل الاعظم الذى بات ينتظرها فى ساحة حرب القرم .

وكانت انجلترا لا تزال ثملة بنصرها فى واترلو ، فدخلت الحرب الجديدة على هذا الوهم .. فاذا بعدد القتلى والجرحى من أبنائها يفيقها من حلمها وزهوها ، وينبه من لا يتنبه الى قلة الامدادات وسوء الاستعداد الحربى والطبى معا فى جيوشها..!

وساءت حال الجرحى فى المستشفى المركزى بجهة « سكوتارى » ، القريبة من البوسفور .. فقد اكتظ بهم على سعته ، وغدت الاحوال فيه مثيرة للرثاء حقا فى مجافل الانجليز عامة ، بل ومثيرة لانزعاجهم الشديد ، سواء بدافع الانسانية أو بدافع المصلحة الوطنية ، من حيث خشيتهم أن يؤدى ذلك كله الى الهزيمة فى الحرب وما يتبعها من كوارث ..!

وكان « سيدنى هربرت » صديق فلورنس العتيد منذ رحلتها الى روما قد تقلد منصب الوزارة ، فأرسل يهيب بها أن تخف الى الاناضول على رأس فريق من الممرضات كى تساعد الهيئات الطبية العسكرية ، وتدخل نظام التمريض «النسائى» فى الجيش البريطانى لاول مرة !..

وكانت فلورنس فى ذلك الحين فى الرابعة والثلاثين من عمرها، قد تم نضجها واستوى عودها، فلا هى شابة عابثة، ولا هى كهلة متداعية .. وانما هى أصلح ما تكون لذلك العمل الضخم من حيث درايتها ، وقوة احتمالها، واكتمال شخصيتها، وتجاربها العملية .. وقد قبلت المهمة الخطيرة التى ألقيت على عاتقها مرحبة متحمسة ، سيما وقد رأت فيها فرصتها المنشودة: فلو أفلحت وزميلاتها فى انقاذ الجيش من الكارثة ، كان ذلك بمثابة « رد اعتبار » لفئة الممرضات ، ورفع لمستواهن الاجتماعى فى العالم بأسره !

◆ وكان مراسل «التيمس» قد صور الحالة فى «سكوتارى» تصويرا نعتهافيه بأبشع نعوت السوء والفوضى ٠ ولكن هذا الوصف لم يكن صحيحا كل الصحة ، لان الحالة كانت أسوأ مما وصف فى الواقع بكثير !٠٠ **فلم تكن هناك استعدادات طبية مرتبة من أى نوع كان ، اذ لم يكن يخطر لذوى الشأن فى ذلك الحين أن الحرب تحتاج الى أسرة وأدوية وملابس داخلية وضمادات وآنية للتطهير والتعقيم والطعام والغسيل ، حاجتها الى البارود والقذائف والبنادق!٠٠** لهذا ذهبت الجيوش الانجليزية الى القرم وكل عدتها من التطبيب طبيب ضابط كبير الرتبة ، وبضعة أطباء شبان ، وبضع أدوات للجراحة وكفى !٠٠ فلا أفرشة للسراير ، ولا ملاءات٠٠ولا وجود أو شبه وجود للملابس الداخلية النظيفة التى لا غنى عنها لطريح فراش جريح يجب أن يكون جسمه نظيفا لكى لا يتطرق الى جرحه الفساد ٠٠٠ الخ

وما ظنك بمستشفى سكوتارى ، وهو المستشفى العسكرى الرئيسى فى تلك الحملة !؟٠٠ انه فى ضاحيـــة من ضواحى اسطنبول ، ينقل اليه الجنود عبر البحر الاسود بعد أن يسعفوا بعلاج مبتسر فى مستشفيات الميـدان المتنقلة ٠ **وكانت تلك الرحلة وحدها عذابا أقسى من عذاب الجراح البالغة والحرب الضروس ٠ فهى رحلة كانت لا تستغرق فى الاوقات العادية أكثر من أربعة أيام ، ولكنها كانت تستمر وقتئذ اسبوعين أو ثلاثة ، والجرحى أكداس على ظهر السفينة وفى داخلهـــا ، يتبادلون العدوى ، ويعانون من القذارة والاهمال أكثر ممـــا يعانون من اصاباتهم الاصلية ! ينامون على الارض ، بلا فراش ولا غطاء ، وأحيانا بلا ثياب ، اذا كانت ثيابهم الاولى قد بليت أو تمزقت أثناء القتال ، فليس عجيبا أن تصل نسبة الوفيات بين هؤلاء المساكين الى ٧٤ فى الالف ، يلقى بهم فى عــرض البحر قبل أن يصل الركب الى شاطىء اسطنبول ٠٠!**

◆ ولكن اذا عرفت الحالة على الشاطىء ، لم تحزن على من هلكوا قبل بلوغه، وربما غبطتهم على هلاكهم السريع!٠٠ فالنقل من الميناء الى المستشفى لا يتم على نقالات، اللهم الا لذوى الجراح الخطرة ، أما الباقون فيحملهم الجنود الناقهون أو يجرونهم على سفح التل الذى يجثم فوقه المستشفى ٠٠٠

ولا تحسبن أن عذاب المساكين ينتهى عند أبوابه ٠٠٠ كلا ٠ بل كأن أبوابه تلك هى أبواب الجحيم التى يروى «دانتى» انه قرأ فوقها هذه العبارة :« أيها الداخلون ! ودعوا آمالكم ! »

فالداخل مفقود ، والخارج مولود ٠٠!

فالبناء عتيق لا يصلح لسكنى الاصحاء ، فضلا عن المرضى: حيطانه متداعية قذرة ، وأرضه نخرة ، وأبهاؤه معتمة ، وغرفه مهجورة مظلمة ، والقذارة ملكة متوجة على جميع أرجائه المترامية الاطراف ٠ أجل ، المترامية الاطراف فى ظاهر الامر ، ولكنها ضيقة اذا قيست بالعدد الضخم من اللائذين به ٠ فطول الاسرة فيه أربعة أميال ، وقد صفت ملاصقة لا يكاد المرء يستطيع المرور من بينها !

وأما الادوات فيكفى فى الكلام عنها أن يقال أن المناشف والصابون والطشوت كانت أشياء لا وجود لها فى ذلك المستشفى العتيد ٠ وكذلك الاطباق وأدوات الاكل والمكانس والمقصات ٠ أما أدوات المطبخ والوقود فكانت قليلة جدا ٠٠٠ فلم يكن هناك شىء وفير الا القذارة ، والفوضى ، ومئات المرضى٠٠ المرضى الذين لا يستطيعون تغيير ملابسهم ولاغسلها، لانه لا مغاسل٠ ولا يستطيعون تغيير ضماداتهم، لان الضمادات قليلة ٠٠!

وكان دون القضاء على هذه المخازى تراث ضخم من تقاليد العمل الحكومى الذى يتميز بالتراخي والجمود وضيق الافق والتعنت ٠

◆ هذا هو الجو القاتم المقبض الذى وجدت فلورنس نفسها مكلفة بالكفاح فيه • وكانت قد سألت المختصين قبل أن تبرح لندن عن مدى الاستعدادات المتوافرة فى سكوتارى لتحقيق أهداف «بعثتها»، فكان الجواب أن فى المستشفى كل مايلزم من الادوات والادوية ، وانه لا ينقص المرضى شىء تحتاج الى أخذه معها • ولكن احساسها هداها أن تخالف هـذه المعلومات.، فاشترت من مارسيليا كمية هائلة من المئونة والعقاقير كانت ذات أثر كبير فى تدارك الحالة عند وصولها •

ويخطىء من يظن ان الرؤساء الافاضل قد رحبوا بما جلبته القادمة معها من معونة ! كلا ! اذ كيف يقبلون أن يقـال ان ادارتهم السنية كانت بحاجة الى مساعدات « أهلية » ؟ دون هذا وتهدر كرامة « الميرى » ••• وللميرى « أسود » تغضب له ، لانها تعيش على سمعته الجوفاء !

لهذا تصدى لها رئيس القسم الطبى ومعاونوه ، وأبدوا لها جفوة منفرة • وأعانهم على هذا سفير انجلترا فى اسطنبول، حتى لقد أريد الحيلولة بين مندوب « التيمس » وبين انفاق ما جمع بالاكتتاب العام للترفيه عن الجنود ، واقترح عليه أن يشيد به بدلا من ذلك كنيسة فى « بيريه » من بلاد اليونان !

وهنا ظهرت مواهب فلورنس ، وصحة فهمها لحقـائق الدين ومغزى الرحمة الانسانية •• !

فلو كانت رقيقة ضعيفة الشخصية لفشلت ، ولكنهـا كانت من معدن أعدائها رجال الحرب ، ففل حديدها حديدهم، لانه حديد أصيل يقوم على قوة الحق وقوة الشخصية وقـوة الخلق، لا على جاه المنصب والعزة بالسلطان وكفى !•• وهكذا، بالصبر وعدم الاكتراث للعقبات فرضت فلورنس وجودها على المستشفى فرضا ، فاذا الجنود يتمتعون بأدوات صحية ضرورية لم يكونوا يعهدونها من قبل فى ذلك البنـاء الكريه ، **وبدأت**

النظافة تطل برأسها فى الطعام ، والارض ، وأغطية الفراش، والملابس ٠٠ فقد خرجت فلورنس عن ٧٠٠٠ جنيه من حر مالها - وهو مبلغ كان يومئذ ثروة ضخمة ! - عدا أموال أخرى أرسلت اليها من الشعب المتحمس لرسالتها ، لشراء صحاف ، وأدوات للغسيل، وملابس داخلية، وملاءات، وأربطة، وصابون، واستأجرت منازل بأسرها تعمل فيها زوجات الجرحى فى غسل الملابس ورتقها ، وبلغ ما اشترته فى دفعة واحدة ٢٧ ألف قميصا ٠٠٠ !

وهكذا كان عليها أن تكسو الجيش البريطانى - على حد تعبيرها - وأن تدبر وحدها وسائل العناية الصحية لاكثر من ألف مريض ، فى وجه مقاومة يحسب حسابها من المسئولين وأهل السلطان ! ٠٠ وأمام ضخامة المهمة التى أخذتها على عاتقها صارت المرأة الجبارة لا تنام الليل ، بل تنفقه فى كتابة التقارير والرسائل ومراجعة الحساب ، وتنفق النهار فى تدبير مختلف الشئون وتنفيذها ٠٠٠٠ أما المواساة نفسها - وهى أكبر ما حسبه الناس من أعمالها - فلم تكن الا مهمة صغيرة بين مهامها المضنية وجهودها المتعددة العنيفة ٠٠٠

◆ ولم يكن المطبخ أهون من عنبر التمريض وحجرة العمليات شأنا ، ففيه اصطدمت « بالروتين » الحكومى الجامد كما اصطدمت به فى الطوابق العليا ، فلائحة الجيش تمنع تخليص اللحم من العظام ، وتنص على تقسيم اللحم على حسب الحجم ، فقطعة منه تكون لحما خالصا، وأخرى تكون عظما بغير لحم ٠٠٠ ولا ضير - ما دامت اللائحة لم تخرق - فى أن يموت المريض أو الناقه لنقص تغذيته عما ينبغى له ! ٠٠ هذا فضلا عن سوء الطبخ ، كأنما الطعم المقبول مما لا يتفق وما للروتين الحكومى من مهابة !

أجل، كان المطبخ والمغسل هما أشق ميادين كفاح فلورنس،

وقد أدركت هذا بعبقريتها العملية، على خلاف تابعاتها وصواحبها من « زهرات المجتمع » اللواتى كن يذبن رقة ويتحرقن شوقا الى وضع أيديهن على جباه المرضى وهن يذرفن الدمـــع ! ••
أما فلورنس الصارمة فكانت تقول لهن قبـــل أن يصلن الى اسطنبول : « ان الطست هو معركتنا الاولى التى سنخوضها ، وفى ساحته سيطلب أكبر قسط من العمل والمجهود ! » •• كيف لا وقد كانت ثياب الجرحى تعود اليهم بعد الغسيل زاخرة « بطوابير » القمل والحشرات كما كانت ؟!

ورغم صرامة فلورنس فى مباشرتها لمهمتها الجديدة فانها كانت أفعل أثرا فى المرضى من الرفيقات الباسمات •• فانهم كانوا يلمسون فيها حرارة الاخلاص والمحبة الخشنة خشـونة الصدق ومضاء العزيمة ، فكانوا يطيعونها ويتشجعون بمرآها ، ويتعلقون بخيالها ووقع خطاها كأنها قديسة من قديســات الاســاطير ! •• واذا احــترامهم لهــا يدفعهــم الى التأدب فى الخطاب أمامها ــ مع تفشى البذاءة بين طبقات الجنود فى ذلك العهد ! ــ بحيث لم تذكر فلورنس انه وقع على سمعها لفظ ناب طول تلك المدة •

وعلى هذا المنوال لم تنقض على وصولها ستة أشهر حتى كان كل شىء فى المستشفيات المركزية قد أصبح على ما يرام •• ففكرت فى أن تقوم بزيارة مستشفيات الميدان المتنقلة أيضــا بنفسها • وهى مهمة كانت شاقة الى أبعد حد ، بسبب وعورة المسالك ، وصعوبة المواصلات ، وحدة الطقس ، وانعدام وسائل الراحة فى الحل والترحال •• فالثلج لا يكف فى تلك الفترة من السنة عن الهبوط ، وقد يكلفها الانتقال من مركز الى مركز ان تمشى تحته طول النهار على قدميها بغير راحة أو توقف !

ولكن هذا كله لم يفت فى عزيمتها ، فقد كان زادها مــن الاحتمال والمقاومة عظيم •• الا أن لكل شىء آخرا يقف عنده ولا

يعدوه ، ومن هنا أدى بها مجهودها المضنى الى اصابتها بالحمى، واشتداد وطأتها عليها ، حتى ظن فى بعض الاحيان انها على شفا الموت . ومع هذا لم تكف عن العمل ، وعن الكتابة ، حتى عجزت يدها عن حمل القلم .. !

◆ ولما أبلت من مرضها شيئا ما ، نصحها الاطباء بأن تعود الى انجلترا .. ولكنها أبت اباء شديدا ، وأصرت على البقاء فى « سكوتارى » !... **ولما همت بالقيام بزيارة « تمريضية » أخرى للميدان ، خطرت لرئيس القسم الطبى فكرة « عبقرية » لوقف نشاطها واذلال كبريائها وقهرها : أن يأمر المراكز الطبية التى تزورها بأن تمتنع عن صرف أى نوع من الغذاء اليها والى من معها ، فان الجوع قد يفلح معها حيث لم تفلح المقاومة الايجابية !**

الى هذا الحد بلغت العداوة بين هذه المرأة الباسلة القوية فى الحق والرحمة ، وبين أولئك الرجال « الصناديد » ، الذين كانوا ينتسبون مع الاسف الى مهنتى الطب والجندية ، والى هذا الدرك انحدروا يومئذ فى محاربة امرأة شجاعة تجردت لخدمة المرضى ! لكنها كانت أقوى بأسا، وأعلى همة، وغاية، وخلقا، منهم جميعا .. فقد تحوطت للامر دون علم سابق فأخذت معها زادا محفوظا كفاها ورفيقاتها الحاجة الى طعام ، فأتمت رحلتها معهن طبقا لبرنامجها المرسوم ، وجرعت خصمها غصص الغيظ والهزيمة .. وما كانت رفيقاتها خمسا أو عشرا ، بل أربعا وعشرين ممرضة .. تركن من السلطات بلا طعام ، فأمدتهن هى بحسن تدبيرها بما يلزمهن أياما كثيرة ..!

وهكذا انتصرت فلورنس على طول الخط ...

انتصرت ، وسجلت بانتصارها مرة أخرى ان العامل للخير يخطىء اذا ظن الناس سيسارعون لمعونته ، وانما هو حرى أن يوطن النفس على أن معظم القوى ستتصدى لمحاربته، تطوعا ولغير علة ظاهرة ..!

العــودة

◆ وانتهت الحرب . بيد ان نفس فلورنس الكبيرة أبت عليها أن تبرح «سكوتارى» الا بعد أربعة شهور من الصلح، ريثما رحل عنها آخر جندى جريح .. !

وسافرت آخر الامر متنكرة ، ولكن هذا لم يحل دون استقبالها فى بريطانيا استقبال الغزاة الفاتحين ، وحيتها الملكة بهدية فاخرة..هى أيقونة من الماس عليها هذه العبارة : « طوبى للرحماء » .

فهل استكانت للراحة بعد هذا الجهاد الشاق ؟

كلا ! بل بدأ جهادها الاكبر والامر ، لتغيير النظم الاساسية فى القسم الطبى بالجيش ، ولتأسيس مدارس للممرضات المثقفات النظيفات للخدمة فى جميع المستشفيات ، ولوضع أسس علم التمريض بمعنى الكلمة على نهج علمى صحيح .. الخ

جاهدت فلم تدع لنفسها راحة ، ولا لاصدقائها : كانت تعقد الاجتماعات ، وتزور الملكة ورئيس الوزارة، وتؤلب الرأى العام على كبار الموظفين الذين يعطلون الاصلاح ، وتكتب تقريرا عن مأساة « سكوتارى » فى ثمانمائة صفحة من البنط الدقيق، هو أوفى سجل احصائى لمشاكل التمريض فى الميادين ...

وظلت تكافح حتى مات «سيدنى هربرت» تحت وطأة الاجهاد الذى كانت تلزم به أصدقاءها الزاما لا هوادة فيه ، الى درجة أن من كان يفكر فى الراحة منهم كان يعتبر فى نظرها مجرما خائنا للقضية ! .. أفلم تكن هى نفسها مريضة ، ومع ذلك لم تكف لحظة واحدة عن الكفاح .. ؟

وأخيرا تألفت لجنة عليا لاتمام الاصلاح المنشود ، وتأسست «مدرسة فلورنس نايتنجيل» لتخريج الممرضات!..

ولكن اللجنة ـ ككل لجنة حكومية ـ جعلت تتلكأ ، فوالتها فلورنس بالحملات العنيفة حتى أتمت مهمتها بعد لأى ٠

وكان اسم فلورنس قد لمع فى العـالم كله ، وأصبحت « مستشارة » عالمية فى مسائل التمريض وهندسة المستشفيات واعدادها ، يطلب رأيها أهل ألمانيا وأمريكا وفرنسا والهند ، وسائر البلدان ! ٠٠ حتى رأت بعينيها ثمرة انتصارها تعم العالم أجمع وهى فى أواخر العمر ٠٠٠ وكرمها امبراطور ألمانيا ، كما كرمتها حكومة بلادها ٠٠ وصار بيتها كعبة للعظماء ، السعيد منهم من أذنت بمقابلته ـ وهى مشلولة الساقين ـ فى الوقت الذى تشاء ٠٠ !

النهـاية

◆ واكتملت خمسون عاما مجيدة قضتها فلورنس بعد عودتها من « سكوتارى » مكافحة مناضلة ، حتى تحققت مبادؤها ٠٠ وكان أهم ما قامت به من خدمة حكومية اضطلاعها بعمـل المستشار الفنى لوزارة الحرب البريطانية فى عهد تقلد صديقها هربرت لتلك الوزارة ٠ ولم تنقطع صلتها بالوزارة بعد وفاته ٠ **فظلت سنوات طويلة تشرف على حل كل مشكلة تتعلق بالصحة فى الجيش البريطانى ، ولم تنقطع عن ذلك الاشراف حتى وهى مشلولة لا تبرح بيتها ، لانها كانت الحجة والمرجع الوحيـد لتاريخ كل قلم من أقلام الوزارة وتاريـخ كل مشـكلة وكل موضوع ، فلم يكن هناك بد من أن يستشيرها الوزراء والوكلاء كل يوم فى أمور عملهم !**

وكانت قدرتها على التنظيم المالى قدرة خارقة حقـا ، فالقواعد التى نظمتها للقسم الطبى فى مشترواته ظلت موضع التنفيذ ثمانين عاما ٠٠ حتى لقد جاء فى تقرير ديوان المحاسبة فى سـنة ١٩٤٧ ان نظام المشتروات فى القسـم الطبى بالجيش

لا غبار عليه ولا يمكن أن يطمع طامع فى تحسينه . واتضح ان هذا النظام من وضع فلورنس نايتنجيل من ألفه الى يائه !!

ولئن كان كفاحها شاقا فقد جاءت نهايتها سعيدة ، فقل أن عوملت شخصية بمثل ما عوملت به فلورنس فى أواخر حياتها من التكريم والتبجيل ، من العامة وأرباب التيجان على السواء .. !

فلما ماتت ، فى ١٣ أغسطس سنة ١٩١٠ ، وفتحت وصيتها ، تبين انها أوصت بألا يقام لدفنها أى احتفال ! .. فلم يسع الحكومة الا النزول على ارادتها ، فلم تدفن كما كان مفروضا فى «وستمنستر» ـ مقبرة العظماء والملوك ـ بل حملت الى لحدها فى نعش يحمله ستة من جنود الجيش ، ولم يكتب فوق قبرها سوى سطر واحد :

« ف.ن. ولدت فى ١٨٢٠ وتوفيت فى ١٩١٠ »

وهكذا انتهت حياة فلورنس على الارض ، لتبدأ حياتها الابدية الخالدة على صفحات التاريخ !

إذا أردت أن يقرأ إعلانك ..
كل قارئ وقارئة .. فى كل بلد ..
وكل طبقة .. وكل مجتمع

اعلن عن بضاعتك
على صفحات

«كتابي»

الكتاب الشهرى

الذى يدخل كل بيت .. وتتداوله
عشرات الألوف من الأيدى والعيون
عشرات المرات .. طوال أيام الشهر ..

كتب الأولون

كنوز الكتب القديمة

عزيزى القارىء ...

استخرجت لك فى كتابى الاول من كنوز الكتب القديمة كتاب «ديكاميرون» لبوكاشيو .. وفى كتابى الثانى «دون كيشوت » لسرفانتس .. ثم انتقلت بك فى العدد الذى يليه من ايطاليا واسبانيا الى « اثينا » القديمة فاستخرجت لك «الياذة » هوميروس الخالدة .. ثم صحبتنى الى فرنسا القرن الثامن عشر حيث تعرفنا الى فيلسوفها الخالد « جان جاك روسو » فى كتابه المشهور «اميل» .. ومن هناك انتقلنا فى العدد الذى تلاه الى بلاد العرب وجزائر الهند ، فاستمتعنا بصحبة « حى ابن يقظان » و « روبنسن كروزو »

واليوم نستانف سياحتنا الشائقة فنمضى عبر الاجيال الى مصر الفرعونية ، كى نقرأ سويا اقدم قصة عرفها العالم ، وهى – وياللفخر – قصة مصرية !

وفى الاعداد القادمة تقرأ معى باذن الله من هذه الكنوز القديمة : يوتوبيا (الدولة المثالية) لتوماس مور، البطولة وعبادة الابطال (لكاريل)، الكوميديا الالهية (لدانتى) ، الاوديسة (لهوميروس) ، الامير (لكيافيللى) السياسة (لارسطو) ، الجمهورية (لافلاطون) ، رباعيات عمر الخيام .. البخلاء (للجاحظ) ، كليلة ودمنة (لابن المقفع) .. الخ

أول قصة كتبت
فى العالم
«على أوراق البردى»
من الأدب
الفرعونى
غرام الأخوين

هـــذه القصة

◆ لعل هذه القصة أهم ما انحدر الينا من أساطير قدماء المصريين. وقد عثر بها الاثريون على ورقة من اوراق البردى بنية اللون ، شبه متآكلة ، محفوظة فى الوقت الحاضر فى المتحف البريطانى . ومنذ اكتشافها وهى موضع اهتمام الاثريين من انجليز وفرنسيين وألمان ، واهتمام الدارسين للآداب الشعبية (الفولكلور) على اختلاف أجناسهم .

والاخوان المشار اليهما فى هذه الاسطورة يدعى أكبرهما ((آنبو)) أو من ندعوه الآن ((انوبيس)) ، ويرمز اليه فى الرسوم المصرية برجل له رأس ابن آوى . أما الاخ الاصغر فهو ((باتا)) ، وقد صار ايضا فى عداد الآلهة مثل اخيه الاكبر ...

وقد وصف العالم والناقد الكبير ((دكتور جارنيت)) هذه القصة بقوله : ((انها اقدم قصة مكتوبة عرفها العالم على الاطلاق ! .. وهى دليل مادى ملموس على نشاط الخيال البشرى وخصبه منذ ذلك العصر السحيق الذى كتبت فيه هذه القصة ـ عصر الاسرة التاسعة عشرة ـ بل من قبل ذلك التاريخ !))

◆ وقد سجل القصة على ورقة البردى ، منذ اثنين وثلاثين قرنا ، الكاتب المصرى ((أنانا)) ... وترجمها عن الهيروغليفية العالم الاثرى دكتور ((فلندرز بيترى)) ، الذى يقول فى تعليقه عليها : ((انها ليست قصة خرافية كما تبدو ، فهى تسجل افعال وافكار رجال ونساء من البشر .. واما عناصرها وحوادثها الخارقة للمعقول فليست الا جزءا لا يتجزأ من معتقدات الجماعة التى تصور القصة حياة افرادها .. على أن الجانب الاكبر من حوادث القصة جائز الحدوث فى عصرنا الحاضر فى اى بلد يحتفظ اهله بآثار من المعتقدات القديمة ..

فالى الذين ينظرون الى المصريين القدماء باعتبارهم بناة الاهرام ومحنطى جثث الموتى أو صناع المومياءات فحسب .. أقدم هذه القصة التى تصور رجالهم ونساءهم كما عاشوا فعلا .. بعواطفهم وشهواتهم ، وخرافاتهم ، ومعتقداتهم .. وحماقاتهم ايضا !

بيت الاخـــوين

◆ يحكى انه كان فى سالف العصر والاوان أخوان شقيقان ، أنجبهما والد واحد ، وحملتهما فى أحشائها أم واحدة . وكان « آنبو » اسم كبيرهما ، أما الآخر فكان اسمه « باتا » .

واتخذ « آنبو » لنفسه زوجة ، سكن اليها فى دار له ٠٠ وساكنه فى هذه الدار أخوه « باتا » ، كما يساكن الاخ الاصغر شقيقه الكبير ، أو الابن أباه ٠٠ وكان « باتا » هو الذى يصنع لآنبو ما يحتاج اليه من الثياب ، وأدوات الزرع ٠٠ وهو الذى يرعى له خرافه ويتعهدها بالرعاية فى الحقول البعيدة ، وهو الذى يتولى عنه البذر والحرث والحصاد ، وينهض على الجملة بكل عمل من أعمال المزرعة والحقل ٠٠ فهو فلاح حاذق لا نظير له فى الاقليم كله ، وكأنه اله متقمص فى صورة انسان !٠٠ فكان أخوه الاكبر لا يجد مشقة فى شىء على الاطلاق ٠٠

وانصرمت أيام كثيرة على هذا المنوال الهادىء الجميل: يخرج باتا مع الفجر وراء أغنام أخيه يرتاد بها المرعى ، حتى اذا جاء المساء عاد الى البيت مثقلا بأحمال الخضر وفاكهة الحقل والالبان والزبد ، فيضعها جميعا بين يدى أخيه الاكبر الذى يجلس الى جانب زوجته خلى البال من هموم الاعمال ٠ ثم يتناول « باتا » طعامه ، ويروى ظمأه ، ويخرج ليأوى الى مرقده فى الحظيرة ، حتى لا يغفل عن حراسة غنمه ٠٠

فاذا كاد الصبح ينبثق مؤذنا بيوم جديد ، عجن الدقيق وصنع الخبز والفطير وقدمهما لاخيه ، فيعطيه أخـــوه نصيبه لطعام يومه وهو فى الحقل ٠٠ فيسوق باتا غنمه ويمضى بها الى حيث يطيب لها المرعى ٠٠٠ فقد كانت أغنامه تحبه ، وتفهم عنه ويفهم عنها ، لذلك كانت تسر اليه أثناء الطريق :

ـ ان العشب جميل سائغ فى موضع كذا ٠٠

فيصغى لكل ما تقوله له ، ويمضى بها حيث شاءت لتأكل ما اشتهت نفسها ، فترضى وتسمن وتكتنز اللحم والشحم ، ويكثر نتاجها كثرة يعجب لها جميع الناس ٠٠ فلم تكن العين تقع على عجول أجمل من عجوله وأبهى منظرا ٠٠

◆ **وانقضى** زمن الرعى ، وحل وقت الحرث ، فقال له أخوه الاكبر :

ـ هيا بنا يا أخى نعد الثيران كيما نبدأ حرث الارض ، فقد غاض ماء الفيضان وبرزت من أحضان النيل تربة الارض ، وطاب أن يشقها المحراث لتستقبل أحشاؤها بذور القمح ، فتعال الى الحقل وهات معك حقيبة البذور ، حتى نبدأ منذ الصباح الباكر من غد حرث أرضنا بأقصى ما نملك من همة .

وأصغى « باتا » لكل ما قاله أخوه الكبير ، فسمع وأطاع ، ولم يهمل من أمره شيئا . فما خفت عن وجه الارض عباءة الليل حتى آنطلقا الى أرضهما بثوريهما ، وأخذا يشقان بطن التربة العنبرية ، وقد استخف قلبيهما الفرح بالعمل المثمر بعد طول انتظار ...

◆ **واستمر** عملهما فى الحقل بين حرث وبذر أياما عدة ، حتى فرغ ما كان معهما من بذور القمح ، ولم يفرغا من بذر جميع الارض ، فقال آنبو لشقيقه الاصغر باتا :

ـ اذهب على عجل وهات لنا شيئا من البذور مما فى مخزن الدار ..

فذهب باتا يعدو الى البيت ، فوجد زوجة أخيه الاكبر جالسة تضفر شعرها وترجله ، فقال لها :

ـ انهضى فاعطينى بذور قمح حتى أعود مسرعا الى الحقل، فقد أوصانى أخى أن أسرع ولا أتوانى ..

فقالت له زوجة أخيه :

ـ اذهب أنت فافتح خزانة القمح وخذ منها ما تشاء ، حتى لا يضطرب شعرى بعد أن أجهدنى تصفيفه ..

فمضى « باتا » الى الحظيرة فأحضر منها وعاء ضخما من خوص النخيل ، فقد كان يريد أن يحمل الى الحقل أكبر مقدار من البذور ، ثم ملأ ذلك الوعاء الكبير وحمله وهم أن ينطلق به خفيفا .. واذا بزوجة أخيه تصيح به :

ـ كم ذا تحمل على كتفيك ؟

فأجابها مستخفا :

ـ هى ست كيلات من القمح ...

فرنت اليه بعين ندية متكسرة الطرف وقالت وهى تضربه على صدره :

ـ لا بد أنك عظيم القوة شديد البنية ... والله أعلم اننى راقبت عافيتك الفارهة كل يوم بعين متعلقة بك ..!

وأحست بالحنين اليه يأكل قلبها ويسرى بالخور اللذيذ في أوصالها .. فارتمت فوق صدره ، وطوقت عنقه بيديها ، وقالت له :

ـ هيت لك ! هيا دع هذا القمح واضطجع معى ساعة ، نستمتع فيها بالمتعة الجميلة ، وأحس بقوتك تهز جسدى ... واذا راق لك ذلك كررناه كل يوم ، وصنعت لك ثيابا مزركشة تليق بالارباب ...

فثار الدم فى عروق الفتى غيظا وغضبا ، حتى لقد خافت عاقبته ، وقال لها وهو يغالب نفسه :

ـ انك حرام على كظهر أمى ، وزوجك بمثابة أبى ، لانه شقيقى الكبير وفى حجره تربيت ، فلماذا تريدين هذا الشر وتسعين الى هذا الاثم ؟ اياك أن تعيدى على هـذا القـول ، وأقسم انى لن أبوح به لمخلوق ، مهما كانت الاحوال ..!

ثم أخـذ حمله الثقيل وانطلق الى الحقل حيث ينتظره أخوه ، فأتما عملهما على أحسن وجه .

تهمة ظالمـة ..!

◆ **وعاد** الاخ الاكبر الى البيت ، بينما انصرف الاصغر الى أغنامه وأبقاره يعنى بها بعد أن هجـرها طويلا مدة الحرث والبذار .. ثم ساقها فى آخر النهار الى الحظيرة ، حيث ينام معها ، وقد حمل الفاكهة والخضر واللبن الى شقيقه الاكبر على عادته المألوفة .

وكانت زوجة الاخ الاكبر فى أشد حالات التوجس لما بدر منها ، وقد خافت عاقبة الفضيحة ·· فأتت بدهن وزيت وصباغ نيلة فلوثت وجهها ، وانطرحت على الارض ـ شأن من أصابها العار اغتصابا ـ وقد أضمرت أن تقول لزوجها ان أخاك قد اغتصبنى كرها وهو يأخذ القمح ··!

ووجدها زوجها على هذه الحال ، فلم تنهض للقائه ، ولم تخف لصب الماء على يديه ووجهه ورأسه كعادة الزوجات حين يعود بعولهن من الحقل ·· ولا أضاءت له المصباح ، بل تركت العتمة مخيمة على الدار كلها ··· ثم راحت تتقيأ كمن تود لو أفرغت أحشاءها مما أقحم عليها من الرجل الآخر حراما ! ·· فسألها زوجها :

ـ من اتصل بك من الرجال ؟

ـ لم يتصل بى أحد سوى شقيقك الاصغر ، فانه حينما عاد وحده من الحقل كى يحضر لك بذور القمح ، رآنى أصفف شعرى وأضفره·· فنظر الى نظرةمن استملحنى، وقال لى: «هيا انهضى وتعالى نضطجع معا ساعة ، فهى فرصة مواتية!» ·· بيد انى لم أطعه ، وانما قلت له : « قبحك الاله ! أفلست لك بمثابة الام التى حملتك وأرضعتك ؟ أو ليس زوجى بمثابة والدك الذى رباك ؟ » ·· فاستشاط غضبا ، وراح يضربنى حتى لا أخبرك بما جرى ، بعد أن قضى منى وطرا على كره منى !·· فاذا أنت لم تقتله جزاء ما اقترفت ، فلست أرضى أن أعيش بعد ذلك·· واذا أنت أمهلته حتى يحضر ، راح يبكى ويبرىء نفسه فترق له وتعفو عنه ، وربما صدقت دموعه الكاذبة !

الكمين ··!

◆ **وخرج** الاخ الاكبر مهتاجا منطويا على الضغن والشر ، كأنه ضبع من ضباع الجنوب ، وراح يشحذ خنجرا حمله فى يده ·· حتى اذا بلغ باب الحظيرة كمن وراءه متربصا فى

انتظار أن يحضر أخوه ليرقد وينام على عادته ، فيطعنه الطعنة النجلاء !

وما لبث القطيع أن وصل الى باب الحظيرة ، فلما دخلت البقرة التى تقود جميع الابقار، نطقت بكلامها الذى يفهمه عنها باتا قائلة :

– صدقنى ان أخاك الكبير كامن لك وراء الباب ليقتلك ، وقد استل خنجره فى يده ، فاهرب من وجهه وانج بنفسك!

ثم قالت البقرة الثانية هذا الكلام ، ثم الثالثة والرابعة، فلم يعد لديه فى صدق الرواية شك ٠٠ لكنه نظر مع ذلك من أسفل الباب ، فرأى قدمى أخيه ٠٠ واذ ذاك تأكد لديه الخبر، فوضع عن كاهله ما كان يحمله لاخيه على عادته من الخضر والفاكهة وأطايب الطعام وهام على وجهه فى الارض ٠٠٠ فراح أخوه يتعقبه ويتنسم آثاره ، وخنجره المسنون فى يده !

◆ **وراح** باتا المظلوم يتضرع الى الاله «رع حور أختى» قائلا: «الهى ومولاى ! انك أنت الحكم العدل الذى يميز الفاجر من البار ! »

فأصغى «رع» لدعائه ورق له، ففجر مجرى ماء عميقا يموج بالتماسيح العاتية فسد الطريق على الاخ الاكبر « آنبو »، ووقف كل من الاخوين على ضفة من الضفتين ، فصار الاكبر يدق يدا بيد غيظا وأسفا لانه لم يدرك أخاه فيقتله !٠٠ أما الاصغر فراح يهتف بالاكبر قائلا :

— انتظر يا أخى حتى تطلع الشمس غدا ، ويظهر قرص الاله « رع حور أختى » فنحتكم اليه كلانا ، ويدفع بالآثم الى يد البرىء ٠٠ وثق اننى لن أساكنك بعد اليوم ، ولن ترانى عين حيث تراك ٠٠٠ بل انى هاجرك الى وادى الارز !

دليل البراءة !

◆ **فلما** خفت وطأة الظلام ، ولاحت بشائر يوم جديد ، وقع نظر كل منهما على الآخر ٠٠ فقال الاصغر للاكبر :

— لماذا تعقبتنى يا أخى لتقتلنى غيلة وغدرا ؟ أو لست أخاك الاصغر ، وألست لى بمثابة الاب ٠٠ وزوجتك لى بمثابة الام ؟ ٠٠ **ألا فاعلم اذن اننى حين ذهبت الى الدار كى أحضر البذار، راودتنى زوجتك على الاضطجاع معها كما يضطجع الرجال مع نسائهم ، ولكنها قلبت الآية فزعمت لك اننى أنا الذى راودتها ! وانى أقسم لك بالاله المشرق علينا من عليائه « رع حور أختى » ان هذه هى الحقيقة ، واننى أبيت عليها ذلك وزجرتها ٠٠**

ثم أخرج باتا من طيات ثوبه سكينا مما يجتث به العشب فقطع به عضوه التناسلى ورمى به الى مجرى الماء ، فانبرت له سمكة فابتلعته ٠٠ أما هو فسقط على الارض مغشيا عليه، فتصدع قلب أخيه الاكبر حزنا عليه ولهفة، وبكى بكاء مرا ٠٠ لكنه لم يستطع العبور اليه بسبب كثرة التماسيح ٠٠

◆ **فلما** استرد «باتا» بعض قواه قال مخاطبا أخاه الاكبر :

ـ اسمع يا أخي : لقد تركت الشر يتغلغل فى نفسك ، وكان حريا بك أن تذكر جانبا قليلا مما فعلته معك من المعروف والبر !٠٠ فالآن ستعود وحدك الى بيتـــك ، لترعى خرافك بنفسك ، لاننى لن أعود لاقيم حيث تقيم ٠ وانما أنا ذاهب الى وادى الارز ٠٠ فاذا حدث لى مكروه فاذهب الى هناك ، وسوف تجدنى قد سحرت قلبى وجعلته فى زهرة الارز ٠ **فاذا ما وضعت الفأس فى أصل الارز حتى يســـقط ، فابحث عن قلبى فى زهراته ٠٠ ولا تيأس من العثور عليه ولو أنفقت فى ذلك سبع سنين ٠ حتى اذا وجدته فلتضعه فى وعاء من الماء البـارد ، وحينئذ أعود الى الحياة وأرد على التهمة الظالمة التى وجهت الى!»**

العقـــاب ٠٠!

وعند هذا نهض الاخ الاصغر وذهب الى وادى الارز ، أما الاخ الاكبر فعاد الى بيته وقد أهال على رأسه ووجهه التراب والرماد ، وهناك ذبح زوجته وألقى بجثتها الى الكلاب وبنات آوى !٠٠ ثم أقام لاخيه الاصغر مأتما كبيرا ٠٠

◆ **وعاش** باتا في وادى الارز أياما كثيرة ٠٠ عاش وحيــدا فريدا ، يقضى سحابة يومه فى صيد وحش الصحراء ، حتى اذا كان الاصيل نام تحت شجرة الارز التى جعـــل فى زهرة من زهراتها قلبه المسحور !

ثم خطر له فبنى بيديه برجا حصينا فى وادى الارز حشد فيه البدائع والطرائف وكل ما تصبو اليـه النفس ٠٠ وذات يوم قابل وهو خارج من بيته الحصين جماعة الآلهة التسعة فى مسيرهم ليقضوا فى الارض قضاءهم المحتوم ، فقالوا له بلسان واحـــد :

ـ أى باتا ! ألست تشعر هنا بالوحدة بعـد أن تركت الحضر من أجل ما فعلته زوجة أخيك « آنبو » ؟ فاعلم انه قد قتل زوجته وانه صدق كل ما قلته له عنها !

ثم زادت الآلهة فى عطفها فقال الاله « رع حور أختى » للاله « خنوم » ، الذى تفرد بين الآلهة بخلق الانسان وصياغته من طين ، بواسطة آلة صنع الفخار ! ٠٠ قال له :

ـ اصنع لباتا زوجة حتى لا يكون وحده ٠

فصنع له « خنوم » أليفة ، وكانت هذه الاليفــة أجمل وأبهى من كل امرأة على الارض ٠٠ وكانت فيها بركات اشترك فى منحها لها جميع الآلهة !٠٠ ثم جاءت الآلهة « هانور » فى أشكالها السبعة وجعلت تتفرس فيها بطنا وظهرا ، ثم قالت :

ـ موتا ستموت هذه المرأة حين يحم أجلها بحد الخنجر !

وأحب باتا زوجته حبا عظيما ، وأقامت معه فى داره التى بناها لنفسه وجعلها حافلة بكل جميل تهفو اليه النفس ، وكان يقضى نهاره فى الصيد فى البرية ثم يعود عند الاصيل فيضع صيده عند قدميها قائلا :

ـ لا تخرجى من عتبة البيت حتى لا يراك البحر فيحملك بعيدا ، ولا أستطيع أن أستردك منــه ٠٠ لاننى امرأة مثلك تماما ، وقلبى مسحور ومعلق بزهرة الارز ، ولا أستطيع مفارقته لاننى يجب أن أحرسه فلا تمتد اليه يد ٠

خصلة الشعر !

◆ **وبعد** أيام كثيرة خرج باتا ذات يوم على عادته للصيد ، وخرجت الفتاة فى أثره لتتمشى فى ظل الارز ٠٠ فرآها البحر وطاردها بأمواجه ، وهى تهرب منه ٠٠ حتى دخلت بيتها ، فصاح البحر يقول للارز :

ـ هاتها لى ، فانى أريدها لنفسى زوجة !

فاختطف الارز خصلة من شعرها وأعطاها للبحر ، فحملها البحر الى مصر ، وقذف بها أمام قصر فرعون ، حيث كان خدم الملك يغسلون ثيابه ٠٠ فعلقت رائحة الشعر بثوب فرعون ، ولاحظ ذلك أحد الخدم ، فظل وزملاؤه يبحثون عن مصـدر

هذه الرائحة دون جدوى ٠٠ الى أن وجدوا الخصلة بعد أيام ، فاذا لها نفس الرائحة الزكية !٠٠ فحملوها الى فرعون ، الذى أمر باستدعاء الحكماء والمنجمين والسحرة لسؤالهم عنها ٠٠ فقالوا له :

– ان هذه الخصلة من الشعر لاحدى بنات الاله رع‌حور أختى ، ففيها من ريح كل اله طرف ، وهى هدية حملها البحر اليك من أرض غريبة ٠٠ فابعث رسلك الى كافة الاقطار ليبحثوا عنها ، ووجه عددا كبيرا منهم الى وادى الارز ليأتوك بها !

وفعل فرعون ما أشاروا به ٠٠

فى بلاط فرعون ٠٠

◆ **وذهب** الرسل الى وادى الارز فقتلهم باتا جميعا ، الا واحدا تركه حيا ليعود فيخبر فرعون !٠٠ فأرسل فرعون جنودا كثيرين وعربات حربية لكى يحضروا الفتاة ٠٠ وبعث معهم جوارى ووصيفات، يحملن الحلى والثياب الثمينة والعطور، **فأحضروا الفتاة الى مصر ٠٠ واستقبلتها أرض النيل بالفرح والتهليل ، وأحبها الملك حبا جما ، فرفعها الى أسمى المراتب فى الدولة ، مضفيا عليها لقب « السيدة العظيمة المقدسة ! »**

ثم سألها الملك أن تفيض له فى الحديث عن زوجها ، فقالت له :

– ضع الفأس فى أصل شجرة الارز حتى تسقط ٠٠ فيموت !

فأمر فرعون جنوده أن يخفوا الى شجرة الارز ومعهم الفؤوس لينفذوا طلب الاميرة ٠٠ فلما وقعت الشجرة على الارض ، وقع باتا فى الحال ٠٠ ميتا !

◆ **فلما** كان اليوم التالى ، وكان آنبو جالسا أمام بابه يغسل يديه ، حدثت الآية التى كان باتا قد أخبره انها ستكون علامة على سقوط شجرة الارز : فبينما كان خادمه يقدم له قدحا من

نبيذ الشعير انقلب القدح على الارض ، فقام آنبو وأعد عدته للسفر الى وادى الارز ٠

فلما وصل آنبو الى برج أخيه الحصين وجده راقدا على فراشه ميتا ، فبكى عليه وتفجع ٠٠ ثم مضى يبحث عن قلب أخيه بين أزهار الشجرة ، فأنفق فى ذلك البحث ثلاث سنوات، دون أن يعثر عليه !٠٠ حتى اذا كان العام الرابع حدثته نفسه أن يعود الى مصر ، فاعتزم العودة فى اليوم التالى ٠

فلما طلع النهار قام آنبو يمشى تحت شجر الارز باحثا للمرة الاخيرة عن قلب أخيه ، فلما كان المساء عثر فى طريق عودته الى البيت على ثمرة من ثمار التوت ، فأخذها فى يده ٠٠ فاذا هى قلب أخيه المسحور !٠٠ فأحضر اناء به ماء بارد ووضع فيه القلب ، فاذا به يمتص الماء ٠٠ واذا جثة أخيه المسجاة فوق الفراش تدب فيها الحياة !٠٠ فأعطاه آنبو كأس الماء الذى فيه قلبه فشربه جرعة واحدة ٠٠ وعندئذ استرد « الميت » جميع مقومات الحياة ، ونهض فعانق أخاه ، ثم قال له :

ـ اسمع يا أخى ! لقد عزمت أن أسحر نفسى ثورا عظيما جميل الشكل، لم تر عين بشر أجمل منه٠٠ وعندئذ تجلس أنت فوق ظهرى ، حتى اذا أشرقت الشمس غدا أكون قد وصلت بك الى حيث تقيم زوجتى الخائنة !٠٠ ثم تأخذنى بعد ذلك الى حيث يكون الملك ، فتنهال عليك الخيرات وتغمرك النعم ، لان فرعون سيسر كثيرا باحضارك اياى اليه ٠٠ ذلك انى مزمع أن أغدو شيئا عظيما يبهر الناس ويبتهج به جميع أهل مصر !

باتا ينقلب ثورا

◆ **فلما** لاح الفجر انقلب باتا ثورا على الوصف الذى حدث به أخاه ، فامتطى آنبو ظهر الثور فمشى به مشيا حثيثا ٠٠ حتى اذا كان اليوم التالى وجد نفسه أمام قصر الملك ٠ وأشار أحد الاتباع للملك الى الثور ٠٠ فنظر اليه فرعون وأعجب به ،

فأعطى آنبو مقداراكبيرا من الذهب والفضة وشيعه الى قريته٠٠ أما الثور فأخـذه الملك وأوصى به الحكام وجعـل له الخدم والعبيد ٠٠!

وجعل الثور المدلل يجوس خلال القصر ، الى أن تسلل ذات يوم فدخل مقصورة زوجته فى الحريم ، ثم راح يخاطبها قائلا :

ـ أنظرى ! هاأنذا لا زلت على قيد الحياة !

فدقت صدرها بيدها وصاحت به :

ـ من أنت ؟

ـ أنا باتا ٠ لقد ظننتنى انتهيت بعد أن أوصيت فرعون أن يقطع الشجرة لاموت ٠٠ ولكن ها أنذا حى فى صورة ثور!

فاستولى الرعب على السيدة العظيمة لما سمعته من كلام زوجها !٠٠ أما الثور باتا فخرج من الحريم ٠ وحضر فرعون الى الحريم فاختلى بزوجة باتا وقضى معها يوما ممتعا للغاية ، غمرته طواله برقتها ودلالها ٠٠ على المائدة وفى المخدع ٠٠ حتى ذابت نفسه وجدا وهياما ، فقالت له :

ـ اقسم لى يمينا مغلظة انك فاعل ما أقول لك !

فأقسم لها اليمين المغلظة ، فقالت :

ـ اذن اعطنى الساعة كبد ذلك الثور حتى آكله ٠٠

فاغتم فرعون لهذا غما عظيما ، ولكن كان قد سـبق السيف العزل ، فأمر بأن يكون لها ما طلبت !

قطرتان من الدم !

◆ **وحين** لاح النهار أقيمت العدة لمأدبة عظيمة ، وقدمت الضحايا للثور المقدس ، ثم أرسل فرعون الى كبير جزاريه كى يذبح الثور !٠٠ فذبحه كبير الجزارين ، وحمله الرجال حسب العرف المألوف فوق أكتافهم ، فهز الثور رأسه وأسقط نقطتين من الدم الى جوار باب الملك ٠٠ فلم تلبث أن نبتت من هاتين

القطرتين شجرتان عظيمتان جميلتا المنظر .. فحملوا الخبر الى الملك ، الذى تعجب من أن تنبت شجرتان عظيمتان فى ليلة واحدة !.. واحتفل الشعب بهذه المعجزة ، أما الملك فأمر بأن تقدم الى الشجرتين قرابين التقديس ..!

◆ **وبعد** أيام كثيرة استيقظ فرعون ذات صباح وأطل من نافذته على الفضاء اللازوردى ، وقد حلى عنقه بعنقود من الزهر .. ثم ركب عربته المقدسة كى يحج الى الشجرتين المقدستين عند الباب الاكبر فى سور القصر . وتبعته السيدة المقدسة العظمى فى عربة يجرها جوادان .

وجلس فرعون فى ظل احدى الشجرتين ، وجلست محظيته الكبرى فى ظل الشجرة الاخرى ، فتحدثت الشجرة « باتا » الى المرأة قائلة فى همس لم يسمعه سواها :

— أيتها الزوجة الخائنة ، أنا باتا ، لا زلت حيا رغم ما فعلت لى ، وقد قتلتنى حتى الآن مرتين !

المحاولة الثالثة

◆ **لم** تقل المرأة شيئا ، بل قامت وصبرت حتى تدبر الحيلة !.. حتى اذا زارها فرعون فى نوبتها تلطفت معه وأمتعته من وصالها حتى ثمل بقربها ، وعندئذ قالت له :

— أريدك أن تقسم لى أن تنيلنى ما سأطلبه منك .

فلما أقسم لها طلبت اليه أن يأمر بقطع الشجرتين ، كى يصنع لها من خشبهما أثاثا وصناديق جميلة ! .. فأمر بأن يكون كما قالت !

فلما ذهب الخدم للتنفيذ ، وقف فرعون والمرأة يتفرجان .. فاذا شظية من خشب احدى الشجرتين صغيرة الحجم جدا تطير فتدخل فى فم المرأة ، فابتلعتها ، فحملت من فورها جنينا فى أحشائها !

أما الشجرتان فصنعوا لها من خشبهما كل ما أرادت .

التاريخ يعيد نفسه !

◆ ولما كملت أيامها وضعت مولودا ذكرا ، فبشروا بولادته فرعون .. وحملته المراضع الى مخدعه ليراه ، وتهللت جميع أرض مصر بولادة هذا الامير لسيد النيل .. فأمر فرعون بأن يقام مهرجان عظيم تكريما لمولوده ، وخلع عليه من الالقاب ما أعلى به قدره ، فسماه أمير النوبة ..

حتى اذا ما شب الامير عن الطوق جعل له الملك ولاية العهد فى المملكة كلها ، فلما مات الملك تسنم هو عرش مصر.. وأمر الملك الجديد بدعوة جميع الامراء ورجال الدولة الى مجلسه، فلما اجتمعوا بين يديه قال لهم :

ـ أنا باتا ، الفلاح المظلوم الذى قتلته خيانة النساء ثلاث مرات !

ثم قص عليهم قصته كلها ، وأمر فجاؤوا اليه بزوجته ، فنفذ فيها العقاب الفظيع الذى تستحق ..

ثم أمر فجاؤوا اليه بأخيه الاكبر ، فنصبه وليا لعهده ، وظل باتا يحكم مصر ثلاثين عاما ، ثم انتقل الى جوار الآلهة فخلفه أخوه على العرش فى نفس اليوم الذى دفن فيه .

وهكذا تنتهى قصة الاخوين المفجعة ، التى أمر الفراعنة أن تحفظ فى خزائنهم الملكية عبرة للاجيال ، وتحذيرا من مكر النسـاء ..!

خواطر الحياة

النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ...

قرات معى فى الاعداد السابقة من (كتابى) - فى هذا الباب - الكتب النفسية التالية : « كيف تصارح أولادك وبناتك بالحقائق الجنسية » للعالم النفسانى ماكدونالد لاديل .. ثم « طريق السعادة الزوجية » لفريدريك برينك .. و « مركب النقص - أسبابه وعلاجه وامثلته عند العظماء » تاليف و . ج . ماكبرايد .. و «حواء الجديدة - مرشد المراة العصرية المستنيرة الى سعادتها ، قبل الزواج وبعده » للدكتور كورتنى بيل .. و «كيف تقهر الخجل » تاليف س . ه . تيار .. واخيرا « كيف تقهر القلق » تاليف جون كنيدى ..

واليوم اقدم لك هذا الكتاب الممتع الخالد للكاتب الفرنسى الكبير اندريه موروا : « فن الحياة » .. وهو مقسم الى عدة فصول ، اولها « فن الحب » - الذى تقراه فى الصفحات التالية .. يليه فصول : فن الزواج ، فن الصداقة ، فن الحياة العائلية ، فن العمل ، فن الزعامة ، فن الشيخوخة ، فن السعادة .. وساقدمها اليك تباعا فى الاعداد القادمة من (كتابى) باذن الله

L'ART D'AIMER
par
ANDRÉ MAUROIS
اندريه موروا
فن الحب

الحب ‥ هل هو فن ، أم مجرد غريزة ؟

اذا أردنا الاجابة على هذا السؤال فينبغى أن نتساءل فى البداية : ماهو الفن ؟

يرى « بيكون » أن « الفن هو خليط من الانسان والطبيعة ! » ‥ وهذا فى الحقيقة هو أصدق وأدق تعريف للفن ‥

فنحن فى فن الرسم مثلا نجد الطبيعة تمد الرسام بالمادة الخام للصورة : تمده بالشجرة ، والزهر ، والبحر ، والضوء ، والوجوه البشرية‥ثم يأتى هو ـ الرسام ـ فينسق هذه العناصر بحيث ترضى عقول الناس وأبصارهم

وفى فن القصة أيضا ، نجد الطبيعة تتكفل بإمداد الروائى بكافة عناصر القصة : بالعواطف ، والرغبات الملتهبة، والميول المتضادة ، والآثام البشرية ‥ ويبقى عليه أن يخلط هذه المواد الاولية ويصوغها فى قالب دراما مؤثرة تهز المشاعر وتحرك أوتار القلوب ‥‥

كذلك الحال فى الحب، باعتباره فنا من الفنون : تهيىءفيه الطبيعة المادة الخام الاولية ، فتقسم البشر الى جنسين ، وتبث فى كل جنس منهما غريزة حفظ النوع ‥ ثم تدع للناس مهمة صقل هذه المادة الخام وتهذيبها كما يهوون ، طبقا لظروف الزمان والمكان .

ولو لم يتول العقل البشرى هذه المهمة لبقى الحب عند البشر كما كان فى عصور الخليقة الاولى ، آليا ساذجا مثله مثل الحب بين الكلاب أو بين الخنازير !

ولو تأملنا الحب عند الحيوان ، ثم قرأنا احدى خطابات الحب البشرى البليغة ، لقدرنا مدى الفارق فى الحب بين

الطبيعة والفن • ومن طريف ما يروى فى هذا الصدد قصة الوالد الذى توجه الى احدى المكتبات كى يشترى كتابا أوصته ابنته بشرائه ، فلما تصفح الكتاب بين يديه سأل البائعة فى لهجة المتردد الخجول :

« لعل الكتاب لا يتضمن كلاما فى الامور الجنسية يا آنسة ؟ » •• فأجابته المرأة فى لهجة من تريد ان تطمئنه : « كلا ياسيدى •• انه ليس سوى قصة حب ! »

بواعث الحب

ولكى نفهم فن الحب ، علينا أن نجيب على بضعة أسئلة تمهيدية :

فأولا : لماذا يختار الانسان شخصا معينا بذاته يحصر فيه تفكيره ، دون غيره من الناس جميعا ؟

هناك جوابان لهذا السؤال :

◆ **أولهما** اننا خلال فترات خاصة فى حياتنا ـ لا سيما فى فترة المراهقة ، ثم في سن الخمسين ـ نكون بطبيعتنا مهيئين للحب ، الى درجة تجعل الشاب اذا لم يصادف فتاة يحبها •• خلقها فى خياله ! •• واذا لم تصادف الفتاة شابا تحبه أحبت أبطال الاقاصيص الخيالية ، أو نجوم السينما ، أو معلمى المدرسة ••!

ومغزى ذلك أن الباعث على الحب فى هذه الاحوال هو « الشباب » فى ذاته ، وهو أقوى بواعث الحب على الاطلاق •• ففيه يكون الجسم متعطشا الى « نصفه الآخر » المنتظر ، فيغرى صاحبه بالوقوع فى حب أول شخص « مقبول » تضعه الاقدار فى طريقه ••!

وباعث آخر على الحب هو « الظرف » الذى يلتقى فيه الرجل والمرأة لاول مرة •• فذوو الطبع الخجول مثلا قد يندفعون فى مغامرات غرامية « اضطرارية » •• من قبيل ذلك

ما حدث لعدد كبير من سجينات الثورة الفرنسية ، اللواتى كن فى ماضيهن زوجات فاضلات ، حتى التقين فى السجن بأبطال الثورة من الرجال فتنبهت فيهن مواهب الحب التى كانت خامدة قبل ذلك ..

وهناك صور مختلفة للبطولة التى تجذب المرأة الى ذراعى الرجل .. فمنها شهرة الرجل ، أو ثراؤه ، أو سلطانه ونفوذه، أو ما عدا ذلك من صور التفوق التى تكلل الرجل فى نظر المرأة بهالة من السناء والبهاء تغطى كل عيوبه ونقائصه ..

وفى أحيان كثيرة يكون تفوق طيار فى مغامرة جوية ، أو ممثل فى رواية سينمائية أو مسرحية..أو رياضى فى مباراة رياضية..أو خطيب فى خطبة أو محاضرة سياسية أو أدبية.. بداية لحب جارف يكتسح جميع العقبات التى تقف فى طريقه !

الحب من أول نظرة !

◆ **لكن** هناك جوابا آخر ، أو تعليلا ثانيا للحب .. هو انه من قبيل حوادث « القضاء والقدر » التى لا يستطيع أحد تفسير أسبابها أو مقاومة تيارها ! .. وهذا ينطبق أكثر ما ينطبق على الحب السريع الخاطف الذى يطلقون عليه « الحب من أول نظرة ! »

والقائلون بهذه « النظرية » يسوقون دليلا عليها أسطورة يونانية قديمة مؤداها أن الآلهة كانوا قدشطروا الانسان فى بدء الخليقة شطرين ، فصار كل شطر يبحث عن شطره الآخر ، حتى اذا ما التقيا فى مناسبة ما سرى بينهما ذلك التيار العنيف الذى يسمونه « الحب من أول نظرة » أو « الحب الصاعق » .. فاذا كل منهما يحس أن الآخر يأسره بجماله ويسحر حسه ولبه بجاذبيته وحديثه ، بحيث تغدو اللحظة التى يقضيها معه كأنما هى لحظة يقضيها فى الجنة !.. وهكذا يندفع فى حبه

والتعلق به بكل عاطفته وحواسه دون ما تحفظ ٠٠ وفى حمى ذلك الحب يخيل اليه أن صوت صاحبه هو الموسيقى بعينها ، وحديثه هو السحر الحلال ٠٠ والحب الذى من هذا النوع ، الذى مبعثه اعجاب العقل وشوق الجسد فى وقت واحد ، هو الحب المثالى الذى يحقق لطرفيه المتعة الكاملة ٠٠

لكن فريقا من الناس ـ رجالاكانوا أونساء ـ لا تصادفهم فرصة الحب الاضطرارى، ولا الحب من أول نظرة٠٠ فيبحثون مضطرين عن شخص يحبونه وهم بملء حريتهم واختيارهم ٠٠ فهل فى مقدور « فن الحب » أن يعطى أفراد هذا الفريق بضع نصائح عامة تساعدهم على أن يحسنوا الاختيار ؟

قد يرى البعض فى مجال كهذا أن الصبر ، والمرح ، والطبع السمح ، هى صفات أو فضائل يلزم أن تتوافر فى شريك الحياة كى يسعد به شريكه الآخر ٠٠ ولما كانت هذه الصفات لا تتوافر عادة الا فى الاشخاص الاصحاء جسما وعقلا، فانه ينبغى أن يتحرى المرء كل دقة وعناية فى اختيار الشخص المطلوب ، بل وانتقاء أسرة ذلك الشخص أيضا ، باعتبار أن السعادة لا تنبت الا فى التربة التى أثبتت من قبل انها تستطيع انباتها ٠٠ وأن الحب لا يلبث أن يذبل ويضمحل فى جو الحزن والكآبة ٠٠

وقد يرى البعض أيضا أن المرأة تستمتع بالسعادة عادة فى كنف الرجل المجتهد النشيط ، وان الرجل يجد نفس السعادة فى صحبة المرأة العاطفية الخاضعة له ٠٠ وقد ترى أغلبية النساء أن الزوج المثالى الذى يحلمن به هو الذى يتيح لهن فرصة السيطرة عليه ٠٠ لكن الحق الذى لا مرية فيه انه ما من امرأة ذاقت طعم السعادة مع رجل جبان ضعيف ٠٠ كما لا يوجد رجل وجد السعادة الحقة مع زوجة « مسترجلة » تنقصها الانوثة الكافية !

والواقع ان الظروف يندر أن تدع للانسان فرصة اختيار شريك الحياة بملء حريته ومطلق ارادته ، وهــذا من حسن حظه ٠٠ لان حكم الغريزة فى هذا الباب ـ رغم أخطائها ـ أسلم عاقبة من حكم العقل والذكاء ! ٠٠ والشخص العاقل هو الذى لا يسائل نفسه حين يرى شخصا يحظى باعجابه : « هل أترك قلبى يحبه ؟ » ٠٠ لان الحب الصحيح ينبغى أن يصــدر من القلب قبل أن يفكر العقل فى أمره ٠٠ ولولد الحب ـ كمولد كل كائن حى ـ شىء من عمل الطبيعة أولا وأخيرا ٠٠ أما عمل الانسان فى صدده ـ وهو ما نسميه « فن الحب » ـ فيأتى دوره فى المرتبة الثانية ٠٠ وهنا يحسن بنا أن نحدد اللحظة المناسبة التى تبدأ فيها هذه المرحلة ، فيبدأ الفنان فى صياغة ما قدمتـه له الطبيعة من المواد الاولية ٠

كيف يبدأ الحب ؟

◆ يقول « ستندال » فى كتابه الممتع الذى أطلق عليــه « فى الحب » (De L'amour) أن الحب يبدأ عادة « بتصادم » يقع فى النفس بتأثير الميل ، أو الاعجاب أو الشهرة ٠٠٠٠

فنحن نرى مثلا فى قصة تولستوى المشهورة «أنا كارنينا» أن البطل «فيرونسكى» يغادر القطار ، بعد أن رأى أنا كارنينا، محدثا نفسه فى تفكير واستغراق : « لكم هى جميلة !٠٠ ولكن ترى ماذا أرادت باطالتها النظر الى ٠٠ ؟ »

أما فى قصة بلزاك المعروفة « أوجينى جرانديه » فنحن نرى بطل القصة « شارل » يقتحم حياة ابنة عمه ذات يوم فى صورة الرجل التعس المعذب ٠٠ فتقع فى حبه منذ تلك اللحظة الى نهاية حياتها ٠٠!

فاذا أحدث ذلك « التصادم » أثره وركز انتبـاه المرء فى شخص بذاته ، صار « الغياب » عاملا هاما يعين على انماء الحب

وتمكينه فى النفس .. **ذلك ان سلطان المرأة الاكبر هـو فى تأخرها عن موعدها مع الرجل أو تغيبها عنه .. لان التقـاء الشخصين اللذين حدث بينهما التصادم ـ فى المرحلة الاولى للحب ـ يساعد على فضح نقائص كل منهما ومواضع الضعف فيه .. فى حين ان الغياب فى هذه المرحلة يجعل كلاهما فى نظر الآخر أمنية عزيزة مشتهاة .. حتى لكأنه بعض مـا فى الجنة من حور عين !**

ويطلق ستندال على هذه المرحلة من مراحل الحب «مرحلة التبلور » ، اذ يشبهها بقطعة الخشب حين تترك مدة ما في منجم من مناجم الملح فتكتسى ببلورات براقـة تعطيها هيئة الاحجار الكريمة اللامعة ومظهرها !

اللقاء الثانى

◆ **فاذا** تمت مـرحلة « التبلور » هـذه صار المحبوب فى خيالنا شخصا ممتازا يفوق حقيقته بكثير .. وفى هذا يقول الاديب القديم « مارسيل بروست » : « ان الشخص منا حين يحب ، لا يحب فى الواقع شخصا حقيقيا ، بل وهما خلقه فى خياله .. والجمال الذى نضفيه على المحبوب أنما ينبـع من أنظارنا نحن لا من صورته هو ! »

وبعد أن يتم هذا التبلور ـ غيابيا ـ يصبح فى الامكان التفكير فى ترتيب لقاء ثان مع المحبوب ، دون أن يكون هناك مجال للخوف من أن يؤثر هذا اللقاء على الحب الناشىء تأثيرا ضـارا .. **لان عاطفتنا تتكفل ساعتئذ باخفاء صورة الشخص الحقيقية عن عيوننا وجعلنا لا نرى غير الصورة « المتبلورة » البراقة التى رسمها خيالنا ، ولا نسمع الاحاديث والتعليقـات الدالة على عقلية سخيفة جوفاء ، ولا نتنبه الى عيوب الشخص الذى نحبه .. لان الحب انما ينبعث فى هذه المرحلة الثـانية**

من داخل نفوسنا ، لا من خارجها ! ·· وفى هذه المرحلة يكون الحب عادة رحيقا من السعادة الصافية التى لا تشوبها شائبة،

لكن النار لا يمكن أن تستمر فى الاشتعال بغير وقود··· وهنا يكون وقود الحب هو الامل ، والتشجيع بأية صورة من الصور : بنظرة ، أو ضغط على اليد ، أو كلمة مديح ·· الخ

الشك يحيى الغرام

◆ **فاذا** استمرت علامات التشجيع هذه ـ بوضوح ـ أنتجت حبا متبادلا ، بدلا من الحب الذى هو من طرف واحد ·· لكن المغالاة فى تأمين العاشق على مكانته عند معشوقه قد تنتج عكس الغرض منها ، قد تحطم الحب وتهدمه من أساسه !·· فان غذاء الحب لدى الكثيرين هـــو الشكوك ، والتقلب المســـتمر بين الفتور والحرارة ·· ولا صلة لهذا فى الغالب بعواطف الشخص الحقيقية ·· وهكذا قد يرى العاشق فى حركة من محبوبه انها صادرة عن احتقار ، مع انها قد تكون عن خجل أو تواضع ·· وفى مقابل هذا قد يكون فضول العاشق ـ الذى لا يشاركه فيه غير رجل البوليس السرى ! ـ سببا فى تأويل المضايقة الناجمة عن الصداع مثلا ، بأنها نذير شر ·· الى آخر التفاهات التى يبنى عليها المحبون فى العادة أكثر معتقداتهم ، فتراهم يحللون النظرات والكلمات ، ويعللون الاشارات والحركات ، ويذهبون مذاهب شتى فى استنتاج علة الجفـــاء الذى يلقونه ممن يحبون ·· وكلما غمضت تلك العلة فى نظر المحب ـ ولا علة فى الواقع ولا جفاء ! ـ ازداد تفكيره فى محبوبته، وتمكن حبها فى قلبه وعقله ·· فالحب الناتج عن القلق أشبه بالشوكة التى تنغرس وتتوغل فى جسم المصاب كلما حاول انتزاعها !

فالتقلب اذن يزيد الحب حدة واشتعالا ·· ومثل الرجل الذى يترك نفسه فريسة لامرأة مراوغة كمثل القطة التى نحاورها

بكرة الصوف فندنيها منها اذا ابتعدت ، ونبعدها عنهـا حين تقترب !٠٠ **ومطاردة البعيد ، والفرار من القريب ، خصلة من الخصال الطبيعية فى البشر ، كما فى القطط !**

لكن المشاهد ان مغالاة المرأة فى استخدام هذا السـلاح قد تحدث عكس المقصود منها فتقتل الحب بدل أن تلهبه ، كما حدث للعاشقة الشهيرة « مدام ريكامييه » مع حبيبها الروائى المعروف « بنيامين كونستان » ٠٠ مما فصله المسكين فى قصته الخالدة « أدولف » ، التى ليست غير قصة حب مؤلفها نفسه !

المرأة تعبد القوة ٠٠ أو المـال !

◆ **وهنا** يتبادر الى الذهن سؤال :

اذا أحب رجل امرأة ولم تبادله هى الحب ، فهل ثمـة وسيلة تلين قلبها ؟

الجواب يختلف باختلاف العصر والبيئة :

ففى العصور القديمة البدائية كان الرجل يستخدم سلاح القوة الجثمانية ٠٠ كان يخطف المرأة التى يحبها ويفر بها ، فكان الامر ينتهى بها الى أن تقع فى هواه !٠٠ ولعل ذلك لانه اختارها دون سواها من النساء ، فشرفها بهذا الاختيار ٠٠ أو لانه صار سيدها ومولاها ، وأخضعها لسلطانه بالقوة ٠٠!

وهكذا كان سلاح القوة الجثمانية وسيلة الرجـل الى ترويض المرأة المتمردة فى العصور الاولى ٠٠ ثم تلاه فى العصور التالية سلاح المال ، وسلاح القوة « المعنوية » كالشهـرة أو النفوذ ٠٠ وفى الاسطورة اليونانية نرى الاله « جوبيتر » قد ظفر بمحبوبته « داناى » حين تخفى فى ثياب الثرى الذى يلعب بالذهب !

لكن حب المرأة المستعبدة لسيدها خليق أن لا يرضى غرور الرجل الابى ، فنحـن نريد أن « تختارنا » المرأة ، لا أن

« تتحملنا » !٠٠ وغزو قلب المرأة لا يكون ممتعا الا اذا كانت تملك كامل حريتها ، لذلك يندر أن يحب « السلطان » نزيلات الحريم ، لانهن سجينات لا ارادة لهن ٠٠ !

◆ لكن العكس المطلق صحيح أيضا ٠٠ فالمرأة التى تزخـر بها الشواطىء فى الصيف قلما توحى بالحب أو تحرك عاطفـة الرجل جديا ، لا لشىء الا لانها طليقة مباحة أكثر مما يجب ! ٠٠ وهل يكون للانتصار في الحب لذة حين لا يوجد حجاب ، ولا حاجز ، ولا عصمة ذاتية تقف فى طريقه ؟ !

أما حين تكون المرأة صعبة المنال ، فانها تكون هـدفا لمطاردة حامية من الرجل ٠٠ فالشاب المراهق الذى يشغف حبا بممثلة لم يرها الا على خشبة المسرح ، ينسج حولها هالة من الصفات الخارقة التى يخيل له من سماع صوتها ورؤية وجهها أنها تتحلى بها ، فى حين أنها تكون مجردة منها تماما٠٠ وعندما يراها تمثل احدى مسرحيات دى موسيه ، أو شكسبير ، يضفى عليها ما فى الشخصية التى تمثلها من سحر وجاذبية ، ويغفل عن شخصيتها الحقيقية٠٠ وسنها الحقيقية٠٠ والتجاعيد التى فى وجهها ، والتى تخفيها أضواء المسرح المتألقة ! ٠٠ كمـا يجهل كل شىء عن طبعها السىء ، وغرورها المرذول ، لانه لـم يعش معها ٠ وفى هذا يقول بايرون : « أنه لاسهل عليك أن تموت من أجل المرأة التى تحبها ، من أن تعيش معها ! »

كذلك الامر بالنسبة للفتاة التى تعشق مؤلفا روائيا ، فهى تسبغ عليه جلال أبطال قصصه ، غافلة عن «الروماتيزم» الذى يشل مفاصله ، وعسر الهضم الذى يعانيه ، جاهلة كل شىء عن بلادته وكسله ٠٠ أو عصبيته وحدة طبعـه ٠٠ الخ **والخلاصة أنه كلما كان الشخص بعيد المنال ، سهل عليه أن يحظى باعجاب الناس ٠٠٠**

فن الغـــزل

◆ **واذا** كان الامر كذلك ٠٠ فهــل يحسن بالمحب الذى يريد أن يظل محبوبا ، أن يبقى مجهولا ٠٠ على أضواء القاعــدة السالفة ؟

لا يستطيع أحد أن يقول بهذا ، لان العاشق لن يلبث أن يحس فى نفسه رغبة جارفة فى أن يصير معشوقا ٠٠ فما هى الوسائل التى يستطيع بها أن يصل الى هدفه المرموق ؟٠٠ فى الماضى كانت الساحرات يصفن له جرعات من أدوية سحرية ناجعة المفعول ، كما يحدثنا الشعر القديم عن عصر « أوفيد » و « تيوكريتس » ٠ بل اننا لا نزال نشاهد فى العصر الحاضر ــ فى غرف حقيرة بأحياء باريس ولندن ونيويورك ــ عجـائز كئيبات الخلقة يتلقين نفس السؤال الحائر القلــق من أفواه الشباب مئات المرات فى اليوم الواحد : « **ماذا أفعل كى أجعله ــ أو أجعلها ــ تحبنى ؟** »

وفى هذا المجال تجيبنا التجارب البشرية الطويلة ببضع وسائل ، ومراسم ، ومناورات ، وحيل خاصة ، هى التى نطلق على مجموعها «فن الغزل» ٠ ومنها ما هو بدائى بسيط يشاركنا فيه حتى الحيوان ٠٠ ومنها ما هو معقد راق ابتــكره ذهن الانسان ٠٠

وفيما يلى أهم هذه الوسائل :

أولا : العناية بالزينة

◆ **من** أكثر وسائل « لفت النظر » شيوعا : استخــدام الزينة ٠٠ وقد سبقتنا الطبيعة الى هذا المضــمار : فالازهار تجذب بألوانها الحشرات كى تلقحها فى الوقت المنــاسب ٠٠ والفراشة واليراعة كلتاهما تضىء نفسها ليلا كى تفهم جنسـها الآخر أنها متأهبة للحب !

وهكذا المرأة٠٠تتزين بأفخر الثياب والجواهر كى تعجب الرجل فيختارها ٠٠ فالزينة فى المرأة غريزة طبيعية !

ثانيا : المنافسة على التفوق

◆ **ومن** وسائل « لفت نظر » الجنس الآخر محاولة اتيان ما يعجز عنه الآخرون ، فترى كل عاشق يسعى جهده كى يظهر براعته فى فنه ٠ وطرائق ذلك جد متنوعة : فبعض الطيور يغوص فى البرك ليخرج الاعشاب المائية لرفيقاته ٠ وحين سئل الاديب « شاتوبريان » عما يبغى من رحلته الى الشرق أجاب : « أبغى الشهرة ، حتى أظفر بالمعجبات ! » ٠٠ وقد عاد من سياحته فى الاقطار الشرقية بعبارات غزل خالدة لمدام دى نواى !

وكم من رواية ألفت كى تجد فيها النساء تصويرا لعواطفهن قصد به أثارتهن ٠٠ مثال ذلك قصة « المسمار الذهبى » للناقد المشهور «سانت بيف» ٠٠ ولو تتبعنا بواعث الالهام التى أوحت الى عباقرة الموسيقى ألحانهم الخالدة لخرجنا بنتيجة واحدة ، هى أنهم انما أرادوا بها ترجمة عواطفهم ، والتعبير عن نزعاتهم المكبوتة ٠٠ !

وأخيرا فان لاعب التنس الذى يتقن لعبته ، وسائق السيارة الذى يظهر جرأة فى قيادتها بسرعة طائشة ٠٠ والراقص الذى يفتن فى اظهار رشاقته ٠٠ كل أولئك ينشد هدفا واحدا : هو الحظوة باعجاب المرأة !

ثالثا : شهرة الشخص فى العشق

◆ **والرجل** الذى يذيع صيته كفارس أو « دون جوان » يحظى باعجاب النساء ٠٠ انما يمسك فى يمينه بصولجان أخطر قوة يمكن استغلالها للتأثير فى العذارى الغريرات ، اللواتى

يستسلمن غالبا لاغراء الرغبة فى الاستئثار بعاشق ذائع الصيت واستلابه من امرأة منافسة ، بل صديقة !

وهذه الرغبة الغريزية فى النساء رغبة معقدة ، لحمتها الغرور .. وسداها احترام « ذوق » الغريمة والميل الى تعزيز الثقة بالنفس عن طريق الحصول على نصر عسير مضن !

والعاشق المشهور هو الذى يختار عشيقته فى البداية .. اما بعد أن تتوطد شهرته فى هذا المضمار فان الوضع ينقلب فيخترنه هن .. ويسعين هن اليه .

رابعا : التلويح بالقوة .. أو الثروة !

◆ **والمرأة** تنشد فى الرجل دائما الامان والحماية ، فتراها تختار من تتوسم انه أكفأ الرجال لتحقيق هذه الغاية . وكلما كانت ضعيفة ازداد ميلها الى الرجل الذى يستطيع - بقوته ، أو بعبقريته ، أو بثروته - أن يكفل لها الحماية والعون ..

خامسا : سلاح الهدايا .. والاطراء

◆ **وللهدايا** قيمة كبرى فى استمالة المحبوب ، وهى سلاح تعرفه جميع المخلوقات .. فطائر « البطريق » والحصان يهديان الى محبوبيهما الحصباء الملونة البراقة .. والعصفور يهدى الى رفيقته أغصان اللبلاب وأوراق الشجر ، كيما تفرش بها عشهما المشترك .. ذلك أن « عصفورة الجنة » والمرأة سواء فى أن كلتيهما تفكر فى تأثيث عشها حال عثورها على رفيق حياتها .

لذلك كانت خير هدية يقدمها الخطيب لخطيبته حلية تتزين بها أو تزين بها بيتها .. أو باقة من الورد فى المناسبات !

ومن أساليب الاهداء اطراء المحب لمحبوبته، وأكثر اشعار الغزل تتألف من تشبيب واطراء واشادة بمحاسن المحبوب .. **والاطراء يروق لكل انسان فى الغالب ، لان لكل منا - حتى المعتز بنفسه - مركب نقص يعوزه تعويضه : فالمرأة الجميلة تشك فى ذكائها ، والذكية تحتاج لمن يؤكد لها جمالها .. وهكذا يلذ لكل شخص أن يجد ما يطمئنه على تحليه بالصفات الجميلة التى لا يثق تماما بتوفرها فيه** .. ومن هنا كان المدح حسن الوقع كبير التأثير فى كل نفس ، سواء بالنسبة للمرأة أو الرجل . وكم من امرأة مجرومة من الجمال والجاذبية عاشت طيلة حياتها محبوبة من الرجال لانها كانت تحسن اطراءهم !.. وكم من رجل دميم عبدته النساء لانه أتقن فن الاشادة بمحاسنهن !

والمشاهد أن كل انسان يحب أن تطرى فيه مواهبه الكامنة ، التى لم يشتهر بها أو تؤثر عنه .. فالقائد لن يسره أن تشيد بانتصاراته الحربية بقدر ما يسره أن تحدثه عن سحر عينيه المتقدتين ! .. والروائى المشهور قلما يهمه أن تبدى اعجابك بكتبه وقصصه ، ولكنك لو حدثته عن وقع نبرات صوته الجميل لبدا عليه الاهتمام فى الحال ، وانتشى زهوا..!

سادسا : المشاركة الوجدانية

◆ **للمرأة** فى كسب قلب الرجل أسلوب خاص ، يكفى لايضاحه أن نسرد قصة غزو « مدام دى مانتنون » لقلب الملك لويس الرابع عشر ، فى ظروف لم يكن أدعى منها لليأس !.. كانت هى فى ذلك الحين قد جاوزت مرحلة الشباب ، وكانت صلتها الوحيدة بالملك مستمدة من وظيفتها كمربية لاولاده

الذين أنجبتهم له محظيته الفاتنة مدام دى مونتسبان ، التى كان لها على الملك تأثير ونفوذ بالغان ..

ورغم ذلك فقد نجحت المربيــة فى استلاب الملك من غريمتها الخلابة .. بل نجحت فيما لم تجرؤ المحظية الجميلة حتى على مجرد التفكير فيه .. نجحت فى اقناع الملك بالزواج منها .. !

فما هو سر نجاحها العجيب ؟

لقد بدأت بالتقرب من الملك فى صورة رسول للسلام بينه وبين فاتنته ، التى كان طبعها النارى وغيرتها الحمقاء مبعث نزاع متجدد بينهما .. فوجد الملك فى الوسيطة مزيجـا من البساطة والوداعة أرضى شوقه الى الحيـاة الهـادئة ، ككل الرجال .. وبذلك كسبت مدام دى مانتنون المعركة الاولى !

وحين اطمأنت الى مركزها جعلت همها أن تشارك رجلهـا همه الاكبر : عمله ! .. فصارت تحرص على ملازمته وهــو يصرف شئون مملكته ، وتصغى الى التقارير الرسمية التى تتلى على مسمعه ، وتناقشها مناقشة المتتبعة الواعية .. حتى انتهى بها الامر الى أن صارت تستدعى الوزراء الى جناحها الخـاص لتناقشهم وتوجههم ! .. وبهذه الطريقة استولت على لب الملك تماما . ذلك أنها أدركت بفطنتها ان الرجل ـ الجدير بهـذا الوصف ـ يهتم بعمله أكثر من أى شىء فى الوجود .. بل أكثر من المرأة التى يحبها !.. ولو أنها حاولت أن تصرفه عن عمله الى نفسها لانتهى الى نبذها والبحث عن أخرى تكون قد ألهمت سر السيطرة على الرجل عن طريق الاهتمام بمهنته !

سابعا : الموسيقى والصور والقصص

◆ **ولهذه** الفنون الثلاثة فى الحب دور لا يستهان به .. فكثيرا ما يستميل الرجل امرأة بقصيدة من شعر بودلير يقرأها لها همسا على ضوء أحمر خافت .. أو بمقطوعة من موسيقى

شوبان ، أو بتهوفن ، أو فاجنر ، يعزفها لها فى خلوة ! ٠٠ وكم من غرام بدأ بين دهاليز وردهات معرض للصور ٠٠ وكم من قصة ممتازة وصلت حبل الحديث بعد أن انقطع بين حبيبين فى لحظة من لحظات سوء التفاهم ! ٠٠ وهكذا كثيرا ما يكون الفن والثقافة المشتركة سبيلا الى التقريب بين القلوب المتجاوبة ٠٠

ثامنا : المشاركة السياسية أو الدينية

◆ **والمشاركة** فى الايمان السياسى ، أو الدينى ، أو الوطنى ـ أو الايمان بأية رسالة فى الحياة ـ أداة هامة من أدوات تقوية الحب ، فان من العسير على أى مؤمن متحمس لفكرة أن يحس عاطفة قوية دائمة نحو شخص لا يشاركه فكرته ولو بقدر ٠٠ بعكس الحال لو تمت المشاركة بلا تحفظ بين المحب ومحبوبته ، فانها تكفل حينئذ أكبر قسط من السعادة ، كما يحدث للعشاق الذين يمارسون مهنة واحدة ٠٠ اذ ما من شىء أمتع من الحب والعمل حين يجتمعان !

تغذية الحب ٠٠ بعد ولادته

◆ **فاذا** انتقلنا من مرحلة الغزل ، الى مرحلة مولد الحب ٠٠ واجهتنا مهمة تقوية هذا الوليد الصغير وتغذيته حتى يشتد ساعده ٠٠ وهى مهمة عسيرة ، لان نسبة « الوفيات » فى الحب فى مرحلة طفولته كبيرة جدا ! ٠٠ ومن ثم يجب بذل أقصى قدر من العناية فى تنشئته بعد فوات المرحلة الاولى التى يكون فيها كل من الطرفين غنيا بذكرياته وأحاديثه ونوادره التى يتبادلها مع محبوبه بين العناق والقبلات ٠٠

فاذا ما انتهى فيض الاحاديث المسلية ران الصمت والوجوم والحيرة على لقاء العاشقين ٠ وهنا يتعرض الحب

الوليد لخطر الموت المبكر ، ما لم يتداركه صاحباه بالمقويات ..
وأهمها : أن يعرف الشــخص كيف « يجدد نفسه » ، ويخلق الاحاديث الشائقة فى كل لقاء بخصوبة مستمرة .. وهنـــا الفارق بين الشخص الجذاب وغير الجذاب فى حديثه ..

والمبدأ الثانى فى فن تغذية الحب هـو تمكين المحبوب من أن يكون طبيعيا غير متكلف فى خلوته مع حبيبه !.. فلا شىء ينفر الانسان أكثر من أن يجد نفسه مضطرا الى الظهور أمام محبوبه بمظهر مصنوع يرهق الاعصاب ويغرى بالفرار منه أو تجنب لقائه ، أو لقائه وهو مهموم .. !

ويلى هذا فن تدبير اللقاء فى أماكن مناسبة وشائقة .. والعاشق البارع هو الذى يعرف متى يفضل محبوبه الامـــاكن الخلوية ، ومتى يميل الى أماكن اللهو الصاخب ! .. متى يحن الى نزهة فى ضوء القمر، ومتى يتوق الى حضور رواية هزلية، أو مأساة عنيفة ، وهكذا .. والمرأة أقدر من الرجل على فهم هذه الامور ، ومن ثم ينبغى أن يترك الرجل لها أمر اختيار «مسارح» حبهما ..

والمبدأ الرابع : هو السيطرة على الاعصاب وقت «الازمات الغرامية » !.. وهنا يجدر بالرجل أن يوطن نفسه على أن المرأة مخلوق عاطفى لا يقتنع بالمناقشة والمنطق، قدر مايقتنع بالملاطفة والصبر والصمت .. وانها تعيش أسيرة لاعصابهـــا أكثر حياتها !.. وما أشبه تموجات نفسها بأمواج المحيط .. ومن ثم فالرجل ـ أو الزوج ـ العاقل هو الذى لا يفقد سيطرته على أعصابه ، بل يظل أبدا كالبحار الذى يواجه بسفينته العاصفة..

فهو يرخى الشراع ، وينتظر ، ويأمل ، حتى تنقضى العاصفة.. دون أن يفقد حبه للبحر !

فن اجتناب غضب المحبوب

◆ **وهناك** قواعد عامة في هذا الفن تصلح لكلا الجنسين : **أولاها** اظهار الرقة والدماثة البالغتين فى الخلوات ؛ كما فى اللقاء الاول القديم سواء بسواء !.. **وثانيتها** الاحتفاظ بروح الدعابة فى كل الظروف والمناسبات ، وعدم بعث الماضى وذكرياته فى المناقشات التى تدور فى جو من التوتر .. !

وثالثتها حصر الغيرة فى أضيق الحدود، وتجنب المجاهرة بالشك .. وكذلك اجتناب خطة المقاطعة أو عدم المبالاة .. !

والقاعدة الرابعة : هى انفصال الزوجين أياما كل حين ـ كل عام مثلا ـ لانعاش حبهما واشعال جذوته من جديد ! ..

أما القاعدة الخامسة فهى تعمد التخاطب بالرسائل المكتوبة بين الحين والآخر ، لان اللفظ المكتوب يكون أرق عادة وألطف من الحديث الشفوى، ومن ثم فهو يوقظ الاحساس والعاطفة وينشطهما ..

القاعدة الخامسة !

وأخيرا، فان واجب الزوج الحكيم أن يستمر فى مغازلة زوجته غزلا عاطفيا على الدوام، كما كان يفعل وهو يخطب ودها قبل أن تكون له .. والا تطرق الملل الى قلبها ، واشتاقت الى من تسمع منه عبارات الغزل الحارة التى ألفتها فى البداية! فحذار ..!

مجموعة «كتابي»

عزيزى القارىء ...

هل قرات هذا العدد من « كتابى » ؟ وهل اعجبك .. اوبعبارة اصح : ما الذى اعجبك فيه ، وما الذى لم يعجبك ؟.. ارسل الى رايك مفصلا ، وثق انك سوف تجد صدى رايك محققا فى الاعداد القادمة من «كتابى» باذن الله ..

واذا كان هذا العدد قد اعجبك ، فهل قرات الاعداد الستة السابقة ، التى تتكون منها مجموعة نصف عام ؟

اذا كانت قد فاتتك ففى وسعك الحصول عليها بعودة البريد قبل ان ينفد العدد القليل الباقى منها اذا ارسلت اليوم عشرة قروش ـ مقابل كل عدد ـ بعنوان «كتابى» : ١٨ شارع العباسيين بمصر الجديدة .. (هذا باستثناء العدد «الاول» من كتابى فقد نفد تماما منذ صدوره وسوف يعاد طبعه فى فرصة قريبة بعد الاعلان عن موعد ظهوره على صفحات « كتابى » قبيل الموعد بوقت كاف)

واذا اردت ان لايتكرر حرمانك من بعض اعداد كتابى عند صدورها ، لسبب او لآخر ، فارسل اليوم اشتراكك فى الكتاب لمدة سنة (حسب القيمة المبينة فى الصفحة الرابعة من هذا العدد) تصلك اعداد «كتابى» التالية بانتظام يوم صدورها ، اينما كنت ..

وفى وسعك ان تجعل امتياز التخفيض الذى يحققه لك الاشتراك يشمل الاعداد السابقة ايضا اذا جعلت اشتراكك رجعيا ، اى ابتداء من العدد الثانى مثلا ، اوالثالث ، او ... الخ ـ فتصلك الاعداد الماضية بعودة البريد والاعداد القادمة بمجرد صدورها .

الجريمة.. والعقاب

المحاكمات الكبرى

في الماضي والحاضر

١

عزيزى القارىء ...

الآن وقد رفع عن مصرنا العزيزة كابوس الطغيان ، وأشرق علينا فجر عهد جديد نتنفس فيه بملء صدورنا نسائم الحرية ، ونستمتع بشتى حقوق الانسان المقدسة التى انتهك طغاة العهد الماضى حرماتها ، ومرغوها فى التراب ..

الآن وقدخلص أبطال حركة التحرير وطننا من محنته ، وردوا الحرية لاقلام الاحرار .. يتاح لقصة هذه المحاكمة التاريخية أن ترى النور ، بعد أن اعتقلتها العقلية الرجعية التى كان يفرضها الملك السابق .. فمنعت نشرها فى العدد الاول من « كتابى » ، بعد أن اعدت للطبع ، بل بعد أن طبع عنوانها بالفعل ضمن مواد العدد فى الفهرس المنشور على الصفحة الاخيرة من غلاف « كتابى » الاول !

وكنت قدتلقيت كثيرا من الاستفسارات عن سبب اغفال نشر هذه المحاكمة بعد ادراجها فى الفهرس ، فلم أستطع ايضاح السبب الا بردود خاصة .. بالبريد .. والآن ، آن أن تعرف ياعزيزى القارىء كيف مد اخطبوط الطغيان البائد قبضته .. حتى الى صفحات التاريخ !.. وفى الاعداد القادمة اقدم لك بعون الله فى هذا الباب مزيدا من قصص الطغاة ومحاكمات الملوك الغاشمين ..

THE TRIAL OF
ANNE BOLEYN
By
Sir PATRICK
HASTINGS
محاكمة "آن بولين"
أبشع جرائم الملك السفاح
زير النساء "هنري الثامن"
أحدث كتاب للمحقق "الانجليزي"
سير "باتريك هيستنجز"

الملكة فى القفص

ـ اسمك ؟

ـ « آن بولين » ٠

ـ سنك ؟

ـ ستة وعشرون سنة

ـ لقبـــك ؟

ـ ملكة انجلترا !

ـ اقسمى أن تقولى الحق ، والحق كله ، ولا شىء غير الحق !

٠٠٠ وأقسمت ٠

ـ أنت متهمة بأنك وأنت زوجة للملك هنرى الثامن قد ارتكبت جـــريمة الزنا مع كل من ٠٠٠٠ و ٠٠٠٠ و ٠٠٠٠ و ٠٠٠٠ و٠٠٠٠ فما قولك ؟

وقبل أن نسمع جوابها ينبغى أن نعرف القصـــة من بدايتها ٠٠

زير النساء

◆ **تعزى** الشهرة العريضة التى لصقت باسم الملك هنرى الثامن فى التاريخ ـ والتى لا يستحقها فى الواقع ـ الى سببين: أولهما ، شراهته الهائلة فى الطعام والنساء ، التى جعلتـه يتزوج ست مرات ، على التوالى ، بحيث استحق لقب « زير نساء » !٠٠ والسبب الثانى لتلك الشهرة انتحاله لنفسه لقب « حامى الايمان » ، معان نظرة واحدة الى سجلات المحاكمات التى جرت خلال مدة حكمه ، والتى بلغت أوجهـــا بمحاكمته المروعة لزوجته الملكة آن بولين ، تكفى لان تنتزع من ذكراه كل استحقاق لشرف « حماية » الايمان ، بل كل استحقاق للشهرة وخلود الاسم ، أيا كان أساسهما ٠٠!

وللقب « حامى الايمان » هذا قصة طريفة ٠٠ فعلى أثر

نفور هنرى الثامن من زوجته الاولى الفاضلة « كاترين أوف أراجون » أخذ يسعى لدى البابا كى يقضى بتطليقه منها ، **فلما رفض البابا ـ سواء لاسباب دينية أو سياسية ـ أن يجيبه الى طلبه الظالم ، اكتشف هنرى فجأة انه هو ـ وليس البابا ـ الذى يستحق لقب حامى الايمان ، فأطلقه على نفسه !..** وعندما هدده البابا بحرمانه من رحمة الكنيسة أجابه فى وقاحة بما معناه : « فلتذهب الى الشيطان ! » ثم أعلن انه اذا لم يوافق البابا على تطليقه فسيجد من يطلقه ، وسوف يتزوج من المرأة التى راقت فى عينيه ، المدعوة آن بولين ، مهما كانت الاحوال !

ومضى الملك فى طريقه ، فطلق كاترين ، وتزوج من آن بولين ، فكان انتصاره على البابا كاملا !.. **واذ أدهشته السهولة التى تم بها الامر كله ، قرر أن لا يحتمل فى المستقبل أى تدخل أو عرقلة لرغباته من أى مصدر كان .. ومنذ ذلك اليوم ظهر على حقيقته ، كطاغية لا يرحم ، وسفاك متوحش ، وملك مجرد من كل شفقة أو ضمير** .. ولم يعد فى الدولة انسان أعلى من أن يلحقه سخط الملك أو أدنى من أن يحيق به خبثه ..!

عذراء « كنت »

◆ **وكانت** ضحيته الاولى فتاة تدعى « اليزابيث بارتون » ـ أو عذراء « كنت » المقدسة كما أطلق عليها !.. وكانت قد تنبأت بأن الملك اذا لم يعدل عن تطليقه لزوجته كاترين وزواجه من آن بولين فسوف يموت فى خلال شهر من اتمام الزواج!..

وكانت هذه النبوءة التعسة أقسى من أن يحتملهـا الطاغية ، فأوصى برلمانه المطيع المتملق بأن يصدر من فوره تشريعا يقضى بمعاقبة « عذراء كنت » واعتقال جميع أصدقائها وأتباعها ، كما يقضى باعتبار كل من يرفض الاعتراف علنا بأن الملك هنرى الثامن هو حامى الايمـان ورئيس الكنيسة ، مرتكبا لجريمة الخيانة العظمى ! .. ولكى يقنع الشعب بأن التشريع ليس «صوريا» عمد بمجرد زواجه الى تطبيقه على اثنين من رعاياه فى وحشية مروعة تفوق كل وصف وتصديق !

كان أولهما أسقف روشستر ، الذى لم يكد يبدى ترددا فى الاعتراف للملك برئاسته الدينية حتى أمر هنرى بالقائه فى السجن ومحاكمته ، ثم أوحى الى الهيئة التى تولت هـذه المحاكمة بأن تصدر عليه حكمها التالى : « **قد حكمنا بأن تعلق من رقبتك فى حبل المشنقة ، على أن يرفع الحبل عن عنقـك وأنت ما تزال « نصف » حى ، ثم يفصل رأسك بالسـيف ويقطع جسمك الى أربعة أجزاء !** »

وقد نفذ الحكم فعلا فى ٢٢ يونيه سنة ١٥٣٥ ..

ولكن تلا ذلك ما هو أمر وأدهى .. فقـد طالب الملك صديقه المقرب سير « توماس مور » ـ وكان يحظى بحب الشعب الانجليزى واحترام أوربا بأسرها ـ بأن يعترف بلقبه الدينى الجديد .. فلم يمض على اعدام الاسقف اسبوعان حتى وقف سير توماس مور فى قفص الاتهام ليحاكم بتهمة احجامه عن النطق بعبارة الاعتراف التى طلبها الملك منه !

واعترف الرجل بجريمته ، فصدر الحكم باعدامه ! .. ثم نفذ الحكم فعلا ففصل رأسه عن جسده وعلق ذلك الرأس ـ الذى امتلأ يوما بالحكمة وأوحى لصاحبه بتأليف كتابه الخالد « يوتوبيا ، أو الجزيرة المثالية » ـ **الذى سنقدم للقراء فى عدد تال خلاصة شائقة له** ـ فوق قنطرة لندن حتى شبعت منـه

أنظار المارة جميعا ٠٠ وبعدئذ ألقى فى نهر التيمس !

ذلكم كان الملك الذى أوقف ـ بعد عام واحد من الحوادث السالفة ـ زوجته الثانية الملكة آن بولين فى قفص الاتهام كى تحاكم بتهمة ٠٠ الزنا !

عشاق الملكة الخمسة !

❖ ولكى يكون القارىء فكرة عن المهزلة التى انطوت عليها هذه المحاكمة، نرجع به قليلا الى الوراء ٠٠٠

عند ما فشل هنرى فى الحصول من البابا على قرار بتطليقه من زوجته الاولى كاترين ، جمع فى يوم ٢٦ مايو سنة ١٥٣٣ أساقفة انجلترا المطيعين المنافقين وحصل منهم على قرار مسبب بحيثيات مضحكة ، يقضى بأن زواج الملك من كاترين كان وما يزال باطلا من أساسه ، ومن ثم فهو حر فى الزواج ممن يشاء !

وتزوج هنرى فعلا من آن بولين ٠٠ ولكن لم تنقض على هذا الزواج ثلاث سنوات حتى راقت فى عين هنرى امرأة أخرى تدعى « جين سيمور » فأراد الزواج منها !٠٠ وكان لا بد طبعا من ايجاد طريقة يتخلص بها أولا من زوجته التعسة ٠٠ وهنا لم يكن أسهل من أن تحرص احدى وصيفات قصره على ارضاء مولاها فى مناسبة كهذه ، فتقدمت اليه فجأة فى أول مايو سنة ١٥٣٦ تنبئه بأنها « سمعت » من امرأة تدعى « ليدى ونجفيلد » أن زوجته الملكة قد ارتكبت جريمة الزنا ٠٠ ومع أكثر من رجل !!

ولعل من دواعي السخرية أن ليدى ونجفيلد المـذكورة كانت قد ماتت قبل ذلك التـاريخ ، لكن الواشية زعمت ان الليدى صرحت قبل موتها بأسماء « عشاق » الملكة ، ومنهم ثلاثة من موظفى القصر الملكى هم : « نوريس » و « ويستون » و « بريريتون » ، ثم عازف موسيقى من عازفى البلاط يدعى « مارك سميتون » ٠٠ أما الخليل الخامس للملكة فلم يكن سوى « شقيقها » اللورد روشفورد !

وفى اليوم نفسه الذى تلقى فيه الملك هذه الانباء أمر بمحاكمة الرجال الخمسة بتهمة الخيانة العظمى ، فقبض عليهم وزج بهم فى السجن ٠٠ ثم ألقى القبض على الملكة نفسها ، التى لم تعرف التهمة المنسوبة اليها الا وهى فى الزورق الذى نقلت به الى سجن « برج لندن » !٠٠ وتجمع أقوال الشهود على أنها احتجت من فورها فى اباء على هذه التهمة الشائنة وأنكرتها بشدة ٠٠ لكن احتجاجها وانكارها ذهبا أدراج الرياح ، فقد أودعت احدى زنزانات السجن وحيل بينها وبين مقابلة أى مدافع أو مشير !

العاشق الذى اعترف !

◆ وفى الوقت نفسه نشط أعوان الملك سعيا الى الحصول من عشاق الملكة أو من أحدهم على اعتراف يثبت ضدها التهمة أو يعززها على الاقل ٠٠ وفى سبيل انتزاع هذا الاعتراف استخدمت مع المتهمين الخمسة شتى أساليب الاكراه والاغراء التى يستطيع الخيال تصورها !٠٠ وقد قرر أولهم « نوريس » فى هذا الصدد أن المحققين وعدوه باخلاء سبيله نهائيا اذا اعترف بالذنب على نفسه وعلى « شريكته » الملكة ، **فكان جوابه القاطع انه يؤثر الموت على أن يعمد الى هذا الافتراء الزائف ، وأبدى استعداده لان يبارز أى انسان ينسب اليه انه قد ارتكب مع الملكة ذلك الاثم الفظيع !**

واذ فشل المحققون على النحو نفسه مع ثلاثة آخرين من المتهمين ، لم يبق فى جعبتهم غير أضعف الجميع وأوهنهم عزما : عازف الموسيقى فرانك سميتون ·· فنجحوا فى الحصول منه على اعتراف بارتكاب جريمة الزنا مع الملكة !

وبطبيعة الحال لم تكن لهذا الاعتراف أية قيمة كدليل من أدلة الاثبات الا فيما يتعلق بصاحبه وحده ، دون شريكته ·· ورغم ذلك فقد استخدمت السلطات كل ما فى وسعها من حيلة لعدم تمكين الملكة من استجواب المتهم المعترف أو سماع شهادته !·· وكان السبيل الى ابعاده « قانونيا » سليما فى مظهره ، فقد كان القانون يحرم على القضاء سماع شهادة المجرم « المحكوم عليه » !·· ومن هنا قدم العشاق الخمسة الى المحاكمة فى وستمنستر بتهمة الخيانة ، قبل مضى اثنى عشر يوما على سماع الملك بقصة خيانة زوجته !

ورغم عدم قيام أدنى دليل ضد بقية المتهمين الذين لم يعترفوا ، فقد حكمت المحكمة عليهم جميعا بالاعدام ، عقابا لهم على جريمة الزنا بالملكة !·· وبصدور الحكم حرمت الملكة نهائيا من حق المطالبة بسماع شهادتهم أو مناقشة اعتراف المعترف منهم أثناء محاكمتها هى ، التى كان محددا لها أن تجرى بعد يومين ·· وهكذا أمست التعسة مجردة من كل حول أو طول !

ولم يلبث أن نفذ فى العشاق الاربعة « غير المعترفين » حكم الاعدام بالفأس ، أما خامسهم الذى اعترف فقد أدركته « رأفة » الملك فأمر باعدامه شنقا !

محاكمة الملكة

◆ **وفى** الخامس عشر من مايو سنة ١٥٣٦ اقتيدت « آن بولين » من سجنها فى برج لندن الى قاعة وستمنستر كى تحاكم ·· وكانت الملكة يومئذ فى السادسة والعشرين ، أجهل ما تكون بالقانون وأساليب استخدامه للدفاع عن نفسها ! ومع

ذلك فقد حيل بينها وبين الاستعانة بأى خبير فى القانون يوجه دفاعها ـ ولم يكن نظام المحامين بالمعنى المعروف اليوم قد وجد فى ذلك العصر ـ **فوقفت فى قاعة المحكمة الفسيحة الرهيبة بمفردها ، وليس الى جانبها صديق يشجعها أو مخلوق يعطف عليها ، فى مواجهة تسعة وعشرين من شيوخ المملكة ونبلائها الذين كانت تتألف منهم هيئة المحكمة ، وعلى قرارهم يتوقف مصيرها ، وكان يرأسهم الدوق أوف نورفولك كبير القضاة ..**

وقد أديرت جلسة المحاكمة فى البداية وفقا للقواعد القانونية المقررة ، بكل دقة وصرامة .. فتلى على المتهمة صاحبة الجلالة ـ لاول مرة ! ـ قرار الاتهام الموجه اليها ، والذى يتضمن تفصيلات التهمة .. ثم طلب اليها أن تقف فى مكانها وترفع يدها اليمنى فتقسم ثم تقرر : هل هى مذنبة أم بريئة ؟

وكان جوابها : انها بريئة !

ومنذ تلك اللحظة اختفت من قاعة المحكمة كل مظاهر واجراءات المحاكمة العادلة .. فلم يقدم ممثل الاتهام أى دليل يعزز التهمة ضد المتهمة ، ولا أتى بواقعة محددة تحتاج منها الى رد أو تفنيد ، ولا نودى شاهد واحد تستطيع المتهمة مناقشته أو سؤاله !.. بل انها لم تستطع نفى رواية ليدى ونجفيلد ، الشاهدة الوحيدة ، المتوفاة !.. أو تفنيد أقوال عازف الموسيقى المعترف ، ولو فى غيابه ، بحكم القانون الذى يمنع المتهم من الدفاع عن نفسه فى التهم الخطيرة، بلسانه !.. ولو حضر معها أثناء المحاكمة أبسط مدافع لتمسك على الاقل بأن القانون لا يسمح بادانة متهم دون دليل ما! ولكن من أين كان لها ذلك وقد منعت من أن تقول أو تفعل شيئا قد يؤدى الى تبرئتها ؟

الملكة تتوســل ٠٠!

◆ وعبثا ناشدت المسكينة قضاتها ، مؤكدة أن جميع الافعال والاقوال المنسوبة اليها مكذوبة من أساسها ، وانها لم ترتكب اثما !٠٠ فقد أنصت رئيس القضاة الى توسلاتها صامتا !٠٠ **وكان مظهرها ورقة مسلكها وهى تستجدى القضاة حياتهـا مؤثرين للغاية ، بحيث خشى البعض أن تستميل اليها عواطف الشيوخ فينسوا « واجبهم » ويحكموا ببراءتها !٠٠** لكن وجود رئيسهم اليقظ كان له من التأثير عليهم ما حال دون وقوع هذه « الكارثة » !٠٠ أو لعل القضاة التسعة والعشرين أنفسهم لم تكن لهم الشجاعة الكافية كى يتحدوا ملكهم الطاغية ٠٠!

أيا كانت الاسباب فقد صدر الحكم بالاجماع ، قاضيـا بادانة المتهمة ، وباعدامها حرقا !٠٠ اللهم الا اذا أخذت الملك الشفقة عليها فاستبدل بحكم الحرق ٠٠ الاعدام بالفأس !

ساعة التنفيذ !

◆ **وحدد** لاعدام « آن بولين » اليوم السابع عشر من الشهر نفسه ــ أى بعد يومين فقط من المحاكمة !٠٠ وفى صبيحة ذلك اليوم دخل على الســجينة من « يبشرها » بأن الملك قد تعطف فسمح بانقاذها من عذاب الموت حرقا ، واعدامها بدلا من ذلك بالفأس ٠٠ وان الحكم سينفذ فى عصر اليوم نفسه !٠٠ فلم تجب الملكة بغير هذه العبارة : « كنت أتمنى أن أموت قبل حلول هذا اليوم ، كى أنجو من آلامه ٠٠ »

لكن رحمة الملك الماجن اتسعت لتصرف آخر «كريم»، فقد أمر بأن يستدعى لها خصيصا من مدينة « كاليه » بفرنسا جلاد اشتهر ببراعته فى الاجهاز على ضحاياه من أول ضربة !

فلما زفت الى آن بولين هذه « البشرى » أجابت ساخرة : « لكنى لا أملك غير رقبة نحيلة ! »

وأطاحت بالرقبة النحيلة أول ضربة من الجلاد !

عزيزى القارىء ...

فى هذا العهد الاصلاحى الجديد ، يتعين على كل كاتب – ولو لم يكن من «المشتغلين» بالسياسة بالمعنى الذى كان مفهوما فى عهود الرجعية البائدة – ان يساهم فى ركب الاصلاح بكل مايتيحه له جهده ومؤهلاته ، فى ميدان الانتاج الذى اعدته له ميوله واتجاهاته ..

وكاتب هذه السطور يعتز بان يقدم اليوم لقراء كتابه هذا السفر القيم الذى اخرجته للعالم عبقرية المفكر الفذ برناردشو فى اعقاب الحرب الاخيرة .. وقد ضمنه الكثير من آرائه الجريئة المبتكرة ، الجديرة بأن يقراها على الاقل – ان لم يدرسها دراسة مستفيضة – كل مستنير من المتصدين لتوجيه سياسة البلد فى هذه الحقبة الفاصلة من تاريخها .. بل كل مواطن يهمه أن يزود فكره بثمرات عقول الائمة من مفكرى العالم ، ويغذى رايه بآرائهم الناضجة فى كافة مشاكل العصر الحديث .

فالى المواطنين جميعا من ابناء هذا الوادى العريق الصابر ، الذى قدر له آخر الامر أن يامل فى الاصلاح القريب .. والى ساسة مصر ومفكريها ومصلحيها ، ولاسيما المهتمين منهم بموضوع تعديل الدستور وقوانين الانتخاب ، سعيا الى ايجاد برلمان صالح جدير بنهضة البلاد المباركة .. اقدم هذا الكتاب العلمى الذى قد تبدو غالبية الآراء الواردة فيه تهكمية ساخرة ، لكنها السخرية التى تغلف الكثير من الحقائق ، والحقائق المريرة !

إقرأ معى

كتاب الشهر

برنارد شو

آراء صريحة في السياسة !

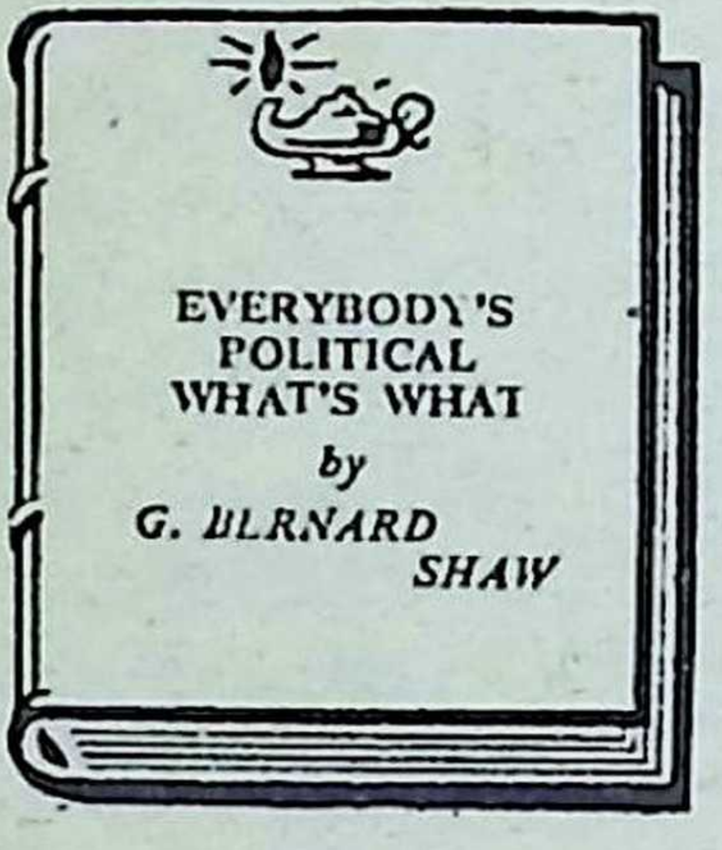

المؤلف .. وفلسفته !

◆ قد يختلف الناس فى فهم وتقدير (برنارد شو) ، وفى الاعجاب بـــه او السخط عليه ، ما شاءت لهم طباعهم ومداركهم وأهواؤهم أن يختلفوا ..

وقد ينقسم قراؤه الى فريق يتشيع له ويبشر بنظرياته وآرائه ، ويؤمن بانه عبقرى قلما تجود الازمان بمثله .. وفريق آخر لا يرى فيه الا «مهرجا» يجيد الدعاية لنفسه عن طريق الاغراب فى القول والفعل ، والمجاهرة بآراء جريئة تثير الجماهير وتصدم الشعور العام ، لا لشىء الا لكى يخلق حول اسمه جوا من القيل والقال ، كما يفعل المهرجون المحترفون الذين يلفتون الانظار الى مواكبهم بدق الطبل والمزمار ! ـ فهو عند هؤلاء لاعب فى «سيرك» .. يلعب على «حبل» من الالفاظ والعبارات المليئة بالمفارقات اللامعة البراقة Paradoxes التى يستعين فى صياغتها بكل ما فى أسلوبه من براعة .. ثم «يطلقها» على الاذهان كما تطلق الشهب أو (الصواريخ) فى الهواء فتخطف الابصار وتعشى عيون المتفرجين .. !

◆ وقد تختلف عند الناس اوجه الاعجاب بـ«شو» أوالسخط عليه ، فيروق بعضهم منه ما يعيبه عليه البعض الاخر ، أو يعيب عليه الاولون ما يروق الاخرين ! .. وقد يفسر البعض غموضه واغرابه على انه فلسفة وعمق فى التفكير يفوق مدارك العامة ، وقد يفسره البعض الاخر على انه تفلسف لا فلسفة ، وتعمق متكلف لا عمق أصيل .. وقد يغالون فى هذا فينسبون اليه انه انما «يتعمـــد» فى كتاباته الا يكون مفهوما ، لسبب بســـيط هو انه لا يفهـــم نفســـه .. !

◆ وقد يعيب عليه البعض ـ فى حين تعجب البعض ـ زرايته اللاذعة بشتى ما تعارف الناس على احترامه وتوقيره أو «تقديسه» من الاوضاع ، سواء فى السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو الدين .. ومهاجمته الساخرة للحكومات والدساتير والبرلمانات ونظم الاحزاب ، على اختـــلاف الوانها ، واستخفافه بالساسة انفسهم .. وبرجال الدين .. بل وبالعقائد والاديان فى ذاتـــــها !

تملق الملوك .. وتملق الناخبين !

فمثلا قد يأخذ عليه الناس استهزاءه بوطنه وقومه كما فى قوله «ان الانجليز لن يكونوا شعبا من العبيد ، فانهم «احرار» فى أن يفعلوا كل ما «تجيزه» لهم الحكومة والتقاليد !» ... أو استهزاءه بالوطنية عموما حيث يقول : «ان السلام لن يتوطد على الارض الا حين تلغى فكرة الاوطان !» ... أو قد تسخطهم عليه نظرته الساخرة الى النظم الديمقراطية والانتخابية حين يقول : «ان السياسى الذى كان عليه فى الماضى أن يتعلم كيف يتملق الملوك ، صار عليه الآن أن يتعلم كيف يتملق ، ويسلى ، ويخدع ، ويخيف ، ويخلب لب ، ويخطب ود ... الناخب !» - أو قوله : «الايكفى لكى نعتبر رئيس الوزارة العصرى أقل طغيانا من (يوليوس قيصر) ان نراه يقود السيارة ، ويكتب برقياته على ضوء الكهرباء ، ويملى تعليماته على سماسرته فى البورصة بالتليفون !»

◆ وقد يعجب البعض منه - أو يسخطهم عليه - قوله فى المنية الحديثة : «اننا انما نطلى المدنية بطلاء زائف ، فنرتكب الافعال القاسية بطريقة رحيمة، ونقول الاشياء المريرة بصوت رقيق ... ونخدر أصدقاءنا بالكلوروفورم ونحن نمزقهم شر ممزق !» .. أو قوله : «ان كل جيل يظن أن الدنيا تتقدم لانها تتحرك دائما .. ولكن بندول الساعة أيضا يتحرك !» .. أو قوله : «ان المتوحش يسجد لآلهة من خشب وحجر ، أما المتمدين فيسجد لآلهة من لحم ودم !» ... أو قوله فى الزراية بالعظماء : «لو استطاع رجل عظيم أن يجعلنا نفهمه ، لشنقناه !» .. أو قوله فى الاستخفاف بالاوضاع الاجتماعية : «اجمع ثروة وانت تجد الشعب كله يجمع على وصفك بانك «جنتلمان»» ! .. أو: «ان الرجال الاغنياء بدون ايمان هم أخطر على المجتمع الحديث من النساء الفقيرات بلا عفة !» ... أو «ان الرتب والالقاب ترفع الرجل المتوسط ، وتضايق الرفيع ، أما الوضيع فهو يشينها !» ... أو قوله : «يتشابه افراد الطبقة الوضيعة وافراد الطبقة الراقية فى شىء واحد : هو انهم جميعا مجردون من الوساوس والفضائل .. فالاولون أكثر ضعة من الفضيلة ، والاخرون ارفع منها !»

◆ وقد ينسب البعض لشو انه يعبث بالفضيلة ويهزأ بالاخلاق الكريمة حين يقول : ((من الخطر أن تكون مخلصا ، الا اذا كنت غبيا أيضا)) .. أويقول ((أننا نعيش فى جو من الخجل والعار ، وكلما ازداد عدد الامور التى يخجل منها الانسان ، كلما ازداد احترام الناس له !))

.. وقد يلمس الناس نواحي من الهجو والمغالاة ، ونواحى من الصدق والنظرة النافذة ، فى سخرية شو من الانسان ومن طبائع البشر وحقائق الحياة ، حين يقول : ((أن الانسان يبرر مسلكه بكل مبرر الا واحدا .. ويتلمس للفرار من الاخطار كل ذريعة الا واحدة .. ويعتذر عن جرائمه بكل عذر الا العذر الحقيقى : وهو الجبن !)) .. أو حين يقول : ((ان التضحية بالذات تمكننا من التضحية بالاخرين دون أن نخجل !)) .. أو : ((ان فضائلك هى عاداتك ، فلا تنعت الاخرين بانهم ليسوا فضلاء لان لهم عادات تغاير عاداتك !)) أو : ((ان الملاك لا يكون فى الجنة شيئا ملحوظا !)) .. أو :((ليست عقوبة الكاذب أن الناس لا يصدقونه ، بل انه هو لا يستطيع أن يصدق الناس !)) .. أو : ((ان النفاق هو تحية الاجلال التى يقدمها الحق للباطل !)) .. أو : ((ان النقاد ـ كسائر الناس ـ يرون ما يريدون رؤيته ، وليس ماهو أمامهم فعلا !)) .. أو : ((ليس أسخف ممن لا يفتأ يشكو لاصدقائه برمه بالحياة ، فى حين يعلمون جيدا انه لو كان يعنى حقا ما يقول لاستطاع التخلص من الحياة بأسهل من بقائه على قيدها !))

المثل العليا .. تتطلب القرابين !

◆ واخيرا قد يرى البعض مع برنارد شو ، أو لا يرون : ((ان مثلنا العليا ـ كآلهة القدماء ـ تتطلب دائما مزيدا من الذبائح والقرابين)) .. وقد يقرون أو لا يقرون نقده الساخر لاسلوب المجتمع فى معاقبة المجرمين حين يقول : ((ان أكثر من فى السجن قلقا هو .. مدير السجن !)) .. أو قوله : ((ما دامت عندنا سجون فلا يهم كثيرا من منا يشغل زنزاناتها !))

.. نقول قد يعجب الناس من ((شو)) ببعض هذا أو كله ، أو قد يسخطهم عليه هذا الرأى أو ذاك .. ولكن الذى لاشك فيه انه لايكاد يخرج كتابا جديدا حتى يتهافت عليه الناس تهافتا شديدا .. وحتى يثير حول مؤلفه جوا صاخبا من القيل والقال .. والاخذ والرد .. والاعجاب والسخط !

الكتاب ..

◆ والكتاب الذى بين أيدينا اليوم هو من امتع كتب برنارد شو ، وهو يحوى زبدة آرائه فى السياسة وثمرة خبرته الطويلة فى ميدانها ، الذى خاضه لاول مرة منذ خمسة وستين عاما حين انغمس فى تيار الاشتراكية وبدأ يطالع الناس بآرائه الجريئة وتعليقاته الساخرة . والآراء الواردة فى الكتاب - كما يقول المؤلف - ليست كلها جديدة ، فلقد سبق له ترديد اكثرها من قبل : «ولكنها آراء واجبة الترديد والاعادة فى كل فرصة تسنح ، كما يحتاج المسمار الى اعادة دقه بالمطرقة مرات ومرات ، قبل أن تثقب ذهن «المواطن العادى» وترسخ فى ادراكه !» ..

ولكن شو لم ينس طبيعته الساخرة وهو يقدم الكتاب ، فوصفه بانه : «دليل (الاطفال) فى السياسة» ! .. بينما يرى الناشر - وبحق - ان الكتاب خليق «بالدراسة» العميقة ، وليس مجرد القراءة ، من جانب أقدر الساسة وأخبرهم بالسياسة ، وليس من جانب النشء و «الاطفال» !

الكفاءة السياسية .. وحسن النية !

◆ والقارىء للكتاب لا يسعه الا ان يحس ، كلما تقدم فى القراءة ، أن كاتبه يرسم الامور فى صورة تكاد تدعو الى اليأس ، وان كان لم ينس ان يدع باب الامل مواربا ، شبه مفتوح ! .. ففى الفصل الاول ، وعنوانه : «هل الطبيعة البشرية منحطة ، غير قابلة للاصلاح ؟» يقول المؤلف ردا على التساؤل الذى يفهم من العنوان : «لو كان الامر كذلك ، وكانت طبيعة البشر على هذه الصورة ، لكانت قراءة هذا الكتاب مضيعة للوقت .. ولكان الانسب للقارىء أن يستبدله على الفور بقصة بوليسية ، أو رواية من الادب القديم .. حسب مزاجه الخاص. لانه لانه رغم ان الكتاب هو بمثابة محاولة لاستكشاف بعض الاخطاء التى أدت بنا الى خوض غمار حربين عالميتين فى ربع قرن ... الا أننا اذا لم نملك الكفاءة السياسية ولا «حسن النية» اللازمين لمعالجة تلك الاخطاء، فانه يكون خير لنا الا نعذب انفسنا بلا جدوى بتنبيهها الى مواضع الخطأ !» ... ثم يمضى المؤلف فيفتح باب الامل شيئا فشيئا ، ويصف لنا طريقة العلاج واطواره ، طورا فطورا ... حتى يتركنا فى نهاية الكتاب وقد فتح لنا باب الامل فى مستقبل الانسانية .. على مصراعيه !

جهل الساسة .. وأبجديات السياسة !

◆ وخلاصة رأى شو فى تشخيص الداء ووصف الدواء أنه يعزو فشل الديموقراطيات المتكرر ، والمفجع ، الى سبب تافه هو جهل الساسة «الصبيانى» بعلم السياسة ! ودواء هذا الجهل هو التثقيف السياسى .. فنحن - كما يقول - نبحث ونناقش (نون) السياسة و (واوها) و(هاءها) .. دون أن نعرف (الفها) وباءها) ، بل دون أن ندرك حتى أن هناك فيها (الفا) و(باء) !.. وجميع تصرفات الديمقراطيات المقوتة ، التى تبدو فى صورة اخطاء سياسية ، قد ارتكبت «بحسن نية» متوافر من جانب أعظم زعمائها وأرجحهم رأيا ! .. والسبب أنهم لم يتزودوا بأبسط علوم السياسة - الطبيعية والرياضية والبيولوجية - أو بما أسماه هربرت سبنسر : «الاوضاع الثابتة الاجتماعية» .. فزعماء الديموقراطيات يحكمون بلادهم كما يفعل رجال المطارات اذا كانوا يجهلون أن الارض كروية ويحسبونها مسطحة ! .. أو كما يفعل الفلكيون اذا عكفوا على تقسيم السنة الى فصول وأشهر وهم يجهلون أن هناك شيئا اسمه سنة كبيسة ! .. فانهم عندئذ يصدرون لنا تقويما أعد على أساس الاشهر القمرية !

مهمة البرلمان .. و « سجل » رجال السياسة !

◆ والنزعة التى تغلب على الكتاب تقنع القارىء بأن مؤلفه ديمقراطى ، مؤمن بديموقراطيته .. ولا يغض من هذا احتقاره غير المحدود لمجلس العموم فى ظل النظام الحزبى ، واحتقاره للحكومة التى ينتخبها كل من هب ودب من العامة ، الذين يجهل اكثرهم «ابجديات السياسة» ، فما البال بنظرياتها العميقة كعلم قائم بذاته ! .. وفى هذا الصدد يرى شو أن مهمة البرلمان يجب ان تقتصر على ابتكار طرق العلاج ووصف الدواء ، وانتقاد الوزارات .. ولكن ليس التشريع والتقنين ، فهذه مهمة يجب أن يعهد بها الى حكام يختارون من بين الاكفاء الذين تجود بهم الطبيعة فى سخاء كاف لان يترك للناخب فسحة واسعة للاختيار ... والدولة الحديثة فى حاجة الى رؤساء وزارات درسوا «علم السياسة» ونالوا فيه شهادات تؤهلهم لان يفيدوا فى

سجل خاص ، كالاطباء والمحامين سواء بسواء ! .. وبغير هذا لن يخلص العالم من حكومات يرأسها جهلة ادعياء يفعلون ما فعله أمثالهم من قبل ، ويهيئون بجهلهم وسوء ادارتهم فرصة سانحة للطغاة من امثال نابليون وهتلر كى ينقذوا الدولة من كابوس الركود والتعطل الذى خلفه اولئك الديمقراطيون الجهلة !

السلطة الحقيقية فى الدولة ..

◆ ثم يذكرنا المؤلف بان الحكم فى انجلترا مثلا ليس فى يد البرلمان وحده، بل قد لا يكون لبرلمانها اى نفوذ فعلى ، وانما السلطة الحقيقية فيها فى يد هيئات ذات نفوذ قوى تعمل من وراء ستار : مثل اتحادات التجارة والصناعات، والمجالس المخصوصة ، والمؤسسات الخاصة بارباب الحرف .. وغيرها من الهيئات التى ليس للناخب عليها أية رقابة أو اشراف ! ...

أما عن الحرب فيقول شو أن خبرته قد دلته على انها تنشب عادة عندما تهبط فائدة رأس المال الى اثنين ونصف فى المائة ، ثم تتوقف عندما يرفعها الدمار الى نسبتها الاولى أى الى خمسة فى المائة ! .. وهو تفسير ساخر يعطى القارىء فكرة عن أسلوب برنارد شو فى التنديد بالرأسمالية وتحميلها تبعة الحروب ...

هذا عرض سريع خاطف لبعض الافكار والمبادىء التى تضمنها الكتاب فى معرض البحث عن حلول عملية لاهم مشكلات السياسة العالمية . وفيما يلى تلخيص «مفصل» لفصول الكتاب، التى بسط فيها شو آراءه فى الديموقراطية .. والمساواة .. ومحو نظام الطبقات .. ثم آراءه فى نزاهة الحكم وفساد الدولة .. وعشرات غيرها من الموضوعات .. الخ

اعداد جيل صالح من المواطنين ‥ والحاكمين !

◆ للمدنية، في رأى شو، خمسة اتجاهات رئيسية، تتعرض فى كل منها للخطأ أو الصواب ، هى : الاقتصاد ، والسياسة ، والعلم ، والتعليم ، والدين . وهو يرى الجيل الحالى متأخرا فيها كلها ومتخلفا عن سير الزمن بمراحل ، الامر الذى يهدد حضارة العالم الحاضرة بالاضمحلال كسائر الحضارات السابقة ما لم يتول المسئولون أنظمتها بالترميم و «التشحيم» بين حين وآخر ‥

وهنا ينشأ التساؤل : من وجهة نظر من يعتبر جيلنا غير مساير للزمن ؟ ‥ والجواب الذى لا جواب غيره هو : من وجهة نظر المواطن العادى ، وزوجته . **فالسواد الاكبر من المواطنين جهلة أو متعلمون تعليما خاطئا ، سواء فى الناحية الاقتصادية أو السياسية أو العلمية أو الدينية !‥ « جهلة » بمعنى أنهم عاجزون عن حكم أنفسهم ، أو مراعاة الحكمة فى اختيار حاكميهم ! ‥ والحاكم الذى لا تتوخى الحكمة فى اختياره قد يرتكب حماقات تدفع الشعب ـ فى موجة يأس ـ الى الارتماء تحت أقدام من تضعه الظروف فى طريقه من الطغاة‥ فلا يلبث هؤلاء أن تغريهم السلطة غير المحدودة التى فى أيديهم بتلويث أداة الحكم والعبث بنزاهته ‥ حتى تنتهى آجالهم فيموتوا تاركين عبادهم فى غمرة من اليأس لا ينقذهم منها الا أن ترزقهم الاقدار بمغامر جديد ، يعبدونه من جديد !**

◆ وليس لهذه الحال سوى علاج واحد حاسم يقتلع الداء من جذوره : هو أن تتاح للمواطنين جميعا فرصة الاخذ بنصيب كاف من التعليم، وفق برامج جديدة تناسب روح العصر وتساير تطور الزمن ‥ على أن يجعل هذا التعليم « اجباريا » حتى سن معينة ، وبعدها يصير اختياريا ومتمشيا مع المنطق والمعقول، في الحدود التي تهضمها القدرة البشرية . وهذه الحدود

تختلف بين مواطن وآخر اختلافا كبيرا يجعل محاولة فرض التعليم العالى على العقول متوسطة الادراك - بدون تمييز - اضاعة للوقت ، بل قسوة مضرة ، مثلها مثل محاولة اشراك طفل صغير مع طلبة الجامعة فى مباراة واحدة للتجديف ! ... كما ان انكار التعليم العالى على مواطن له عقل «اينشتين» هو تفريط فى موهبة ذات قيمة لا تقدر بالنسبة للمدنية ! .. **واذن فخير حل هو جعل التعليم فى متناول كل مواطن ، دون فرضه على أى مواطن ، وبهذا يحتل من تعلموا تعليما مناسبا لمداركهم ، الامكنة التى تؤهلهم طبيعتهم لها** ، ويكونون هم أول المعترفين بخطأ وحذلقة الفكرة التى ترمى الى اعداد « كل » مواطن على اعتبار انه سيصير عالما فذا أو شاعرا مبدعا أو رئيسا للوزارة أو قائدا مظفرا أو قاضيا للقضاة .. لانه لو صح هذا على اطلاقه لما بقى فى الدولة ناخب عادى ينتخب هؤلاء ! .. وانما الحكام يجب أن يكونوا أناسا ولدوا حائزين لقابليات وكفاءات معينة ، ثم اكتسبوا الخبرة اللازمة بالاعداد الكافى ، بنفس الطريقة التى يكتسب بها النجار والطباخ خبرته فى فنه. وهكذا يجب أن يختاروا - فى جميع مراحل درجاتهم - من سجل الناجحين فى أصعب الاختبارات التى تثبت قدرتهم الممتازة ... لا أن يختاروا اعتباطا من دليل التليفونات أو جداول الانتخاب التى تدرج فيها أسماء جميع دافعى الضرائب!!

العناية الشيطانية !!

◆ ولكن ، هل من الميسور أن تتوافر للدولة كفايتها من هؤلاء الافذاذ الممتازين ؟

يجزم « شو » بأن الجواب « نعم » .. وان الطبيعة تجود دائما - وفى سخاء عجيب - بالعدد الكافى من الاشخاص الموهوبين، مما يعطى ناخبيهم فرصة ومجالا واسعين للاختيار والترجيح ، اللذين يجعلان الديمقراطية اسما على مسمى ..

بعكس الحال فيما لو قطع طريق التعليم الكافى على تسعة أعشار المواطنين ، كما يحدث الان ! ٠٠ وهذا الفضل الخاص من الطبيعة جدير بأن يسمى « بالعناية الالهية » ٠٠ العناية التى أنكرها وتجاهلها طوال القرن الاخير علماء محترفون أرادوا أن يوهموا بأن الطبيعة لا تستطيع أن تجود بأمثالهم بسهولة ! ٠٠ أما « العناية الشيطانية » التى تمد العالم بما يلزمه من الحمقى، فقد تجوهلت بدورها من جانب الديمقراطيين أصحاب المذاهب ومبتكرى النظريات ، كأنما حسبوا الناس جميعا فى مستوى ادراكهم هم ، فوضعوا على هذا الاساس نظريات استحال على العامة تطبيقها .

الاغلبية لا تعنى الجدارة للحكم ٠٠

ولكن اذا كانت العناية الالهية قد تجوهلت من نفر من العلماء المحترفين ، فقد عبدها وآمن بها رجال الاحزاب فى انجلترا ، وفى الولايات المتحدة عموما ٠٠ حيث يغالون فى « حسن الظن » بمدارك العامة ، والاعتقاد بأن أفراد حزب الاغلبية متساوون فى الفهم وذوو نصيب كبير من الحكمة و«الفلسفة الاجتماعية»، فوق انهم ناخبون معصومون من الخطأ! ٠٠ **وهذا بالطبع هراء ، فان التقيد باعطاء الحكم للاغلبية ما هو الا تطبيق «سلمى» للنظرية التى تقول ان الغلبة للفريق الاكثر عددا ، لا الارجح عقلا ! ٠٠ أما الطبيعة ـ أو العناية الالهية ـ أو سمها ما شئت ، فهى تنزع الى أن يكون الحكم للاقلية ٠٠ بدليل ان عدد من يصلحون وزراء « اخصائيين » فى شئون وزاراتهم ، أقل من عدد الذين يصلحون « ترزية وسمكرية » ! ٠٠٠** والحكومة الرشيدة هى التى يكون كل وزير فيها متخصصا فى المهنة الخاصة بوزارته (فيكون وزير العدل فيها محاميا ، ووزير الاشغال مهندسا ، ووزير الصحة طبيبا وهكذا) ٠٠ والديمقراطيون الذين يجهلون هذه الحقائق ينظر اليهم شو فى كتابه نظرة عدم احترام ، ويعتبرهم « ساسة مقلقين للراحة » !

البرلمان المثالى

◆ وشو يرى انه ما لم يستطع المتعلمون وحدهم اختيار الزعماء والحكام ، والعدول عن رأيهم فى الوقت المناسب - بعد تجربة أساليب حكم من اختاروهم ، قياسا على النتائج .. فسيظل نظام الحكم محض طغيان يحقق مصالح فئة خاصة من الطبقات أو الهيئات التى تسيطر بوسائلها الخاصة على توجيه الدهماء ! .. وما لم تحد الدساتير من «عمومية» حق الانتخاب فلن يفتأ الجهل السياسى وعبادة الاشخاص يخلقان للدول طغاة من أمثال هتلر ، بل عصابات للحكم يتولاها كذبة ومخبولون ! **واذن فحق الانتخاب يجب أن يقصر على فئات من الافراد الذين يجوزون اختبارات خاصة تجعلنا نثق فى حكمتهم وسداد رأيهم وحسن تقديرهم ، فضلا عن ثقافتهم ونشاطهم ، أما اباحة حق الانتخاب للبالغين اطلاقا فيكون أمرا لا محل له ، اذ لن توجد سوى نسبة ضئيلة من كل شعب تتوافر فيها الكفاءة أو الثقافة اللازمة ، لممارسة هذا الحق ..**

غير ان هناك اعتبارات أخرى توجب قيام برلمان مكون من عدد متساو من الرجال والنساء ، تكون مهمته استجواب الوزراء ، ونقد الحكومة ، والتصويت على منح الثقة لها أو سحبها منها ، ثم اقتراح أساليب جديدة لعلاج واصلاح عيوب الاداة الحكومية .. الخ

والبرلمان المنتخب على هذا الاساس هوالوحيد الجدير بأن يسمى برلمانا .. على أن لا تكون له أية سلطة مباشرة فى التشريع وسن القوانين ، لان الكفاءة التشريعية لا تتوافر الا « للخاصة » الذين تجود الطبيعة بعدد محدود منهم تؤهله كفاياته للتوجيه والمراجعة والاضافة الى « الوصايا العشر » أو الاشراف على تنفيذها. **ولكن المشكلة أن «العامة» اذا لم يتولوا اختيار أولئك «الخاصة» بأنفسهم وازاحتهم عن مقاعدهم بمحض**

مشيئتهم ، فانهم لن يشعروا بأنهم محكومون وفـق « ارادة الشعب » ورضاه ٠٠ ومن ثم نراهم يتمردون ويثيرون الفتن والشغب ! ٠٠ ولكن من حسن الحظ ان الطبيعة ـ كما قلنا ـ تجود فى مثل هذه الظروف بالعدد الـكافى لمواجهـة تلك الاحتياجات ٠٠ وأقرب مثل يقرب هذه الحقيقة الى الإذهان هو أن بيض السمك الذى لا تقوى على البقاء حية فى البحار الا بيضة واحدة منه بين كل ألف بيضة ، تجود الطبيعة بالملايين منه كى تضمن بقاء النوع ٠ ولو طبقنا هذه الحقيقة فى ميدان السياسة لوجدنا انه حيثما احتاج شعب الى رئيس وزارة واحد، أو رئيس دولة واحد يعاونه « دستة » من السـكرتيريين ! (اشارة الى الولايات المتحدة) أو الى دكتاتور واحد ٠٠ رأينـا الطبيعة تنجب له بدل الواحد مائة ٠٠ ما لم يعقها عائق من فقر أو جهل لا قبل لها بهما ٠ فنسبة المشرعين الاكفاء فى شعب متعلم تعليما كافيا تكون دائما فوق ما يكفى لان يترك أمام الناخبين فسحة واسعة للاختيار ٠ وهذه الحرية الواسعة فى الاختيار هى كل ما يلزم كى يكفل للناخبين قدرا كافيـا من الرقابة على حكومتهم

الحكم ٠٠ مهنة !

◆ ولبلوغ هذه الغاية ـ عملا ـ يجب أن يختبر الاكفـاء وتسجل أسماؤهم فى سجلات خاصة (كل فئـة منها حسب درجتها) **فيصبح الحكم مهنة كسائر المهن ٠٠٠ ويصبح المشرع أو الادارى الكفء ، المقيد فى السجل، مثله مثل المحامى المسجل فى سجل نقابته ، أو الطبيب المقيد فى سجل الاطباء ، وخريج الجامعة المدرج اسمه فى سجلات الجامعة ٠ أما « مثيرو الفتن » غير المقيدين فى سجلات المشرعين والاداريين أو الحكام ، فتبقى لهم بعد ذلك فرصة عضوية البرلمان** ٠٠ وقد يمكن ايجاد وسيلة

لتجنب هذه الاختبارات أو « الامتحانات » عن طريق منح هـذه المؤهلات فى صورة درجات فخرية لمن تكون التجربة العملية قد أثبتت استحقاقهم اياها ، على أن تقصر هذه السلطة فوق العادة على الحاكم الذى جاز الامتحان بنجاح !٠٠ كما يجب أن تعدل صوغ الاختبارات وموادها كل مدة قصيرة بحيث تكون متمشية دائما مع عقلية العصر أى Up-To-Date ٠٠ وبحيث تعتبر دائما صيغا ومواد مؤقتة وقابلة للتغيير ، وليست مقدسة !

العيب الخالد !

◆ أما النظام الحزبى - البريطانى - فيرى « شو » أن يمحى من أساسه، فانه لم «يخترع» ، منذ قرنين ونصف قرن ، الا كوسيلة لابطال كيان مجلس العموم باجبار الملك على اختيـار وزرائه من الحزب صاحب الاغلبية فيه ، وعلى حـل البرلمان وتحميل أعضائه مشقة خوض انتخابات جديدة كلما انقسم الرأى فى حزب الاغلبية بخصوص مسألة خطيرة ٠٠ **وعندئذ نجد النواب لا يعطون أصواتهم حسبما يرونه صوابا ، وانمـا يكون رائدهم دائما أن يكفلوا بقاء الحزب صاحب الاغلبيـة فى الحكم ٠٠٠ مفضلين ذلك على تعريض كراسيهم للضيـاع ، وتحميل أنفسهم نفقات ومشقات جمة، فيما لو خذلوا الحكومة!**

وتلافيا لهذا يرى «شو» أن يؤخذ فى النظـام البرلمانى بنظام البلديات ، الذى يعطى الاعضاء حرية اعطاء أصـواتهم حسبما يملى عليهم اقتناعهم ، لعدم وجود أى نفـع أو ضرر شخصى يلحق العضو ، أيا كان الجانب الذى يصوت فى صالحه ٠٠ وحيث لا يؤدى رفض أى مشروع الى حل المجلس واعـادة الانتخابات ٠٠ !

◆ والآن ، وقد عرفنا راى « شو » فى البرلمان المثالى ووجوب قصر حـق الانتخاب على المتعلمين ذوى الراى الناضج ٠٠ ورايه فى ضرورة اختيـار

الحاكمين والمشرعين من بين « الخاصة » الذين أثبتت الاختبارات العملية والعلمية صلاحيتهم لقيادة الشعوب ، والذين أدرجت أسماؤهم فى جداول وكشوف خاصة بصفتهم محترفين لمهنة قائمة بذاتها هى مهنة السياسة او الادارة ، أوالتشريع ٠٠ مثلهم فى ذلك مثل المحامين والاطباء الذين لهم جداولهم الخاصة ونقاباتهم !٠٠ ثم عرفنا وصف شو للداء الرئيسى المسؤول عن فشل الديمقراطيات الغربية فى المحافظة على السلام بينها ، وهو داء « الجهل بابجديات السياسة الاولية » او ـ على حد تعبيره ـ الجهل بـ (الف السياسة و (بائها) و (نونها) !

فاننا نقدم للقراء فيمايلى شرحا مفصلا لبعض هذه « الابجديات » التى ضمنها شو فصول كتابه :

د : ديموقراطية

◆ فأولا ، ما هى الديمقراطية ؟ الديمقراطية كما يعرفها شو هى « تنظيم المجتمع لصالح ـ وعلى حساب ـ كل مواطن ، وليس لصالح طبقة معينة محظوظة » ٠٠ وهنا لا بد من ايضاح حقيقة أولى ، وهى أن المواطن العادى أو رجل الشارع (Mr. Every Body) كما أطلق عليه فولتير ـ ويجب أن نضيف اليه اليوم « السيدة المواطنة » و « الآنسة المواطنة » ـ **يكره بطبعه أن يكون « محكوما » على الاطلاق٠٠ يكره أن تفرض عليه ضرائب ٠٠ ويكره أن يطالب بواجبات ٠٠ ويكره أن يكون مسئولا أمام حكومة أيا كانت ٠٠ حتى ولو كان معنى هذا أن يؤدى الى استعباده على أيدى أفراد مثله غير مسئولين ٠** وحين يستطيع عقله الانطلاق والتحليق وراء حدود شخصه وأسرته وعمله ، يمتلىء غراما بالحرب والفروسية ، كما يمتلىء خياله بعبادة الابطال ٠٠ سواء كانوا من خطبائه المفضلين ، أو قواده الحربيين أو البحريين الذين ذبحوا أكبر عدد من الاعداء ! ٠٠ وهو يؤيد بطبعه أى قانون يقف بينه وبين

الخضوع لسلطان الدولة ، ويكفل له الاستمتاع بحرية الخطابة والكتابة والاجتماع • ولا مانع عنده من أن يستمتع بهـذه الحـريات غيره من البشر ، على أن يكـونوا من مؤيدى آرائه ونظرياته• **والواقع أن الوسيلة الوحيدة لحكم المواطن واخضاعه هى مخادعته والتظاهر بالتمشى معه فى ميوله ورغباته • وهو رغم كل نزواته وخرافاته وأوهامه المعبودة يعرف جيدا كيف يصوت لنفسه ، وكيف يذود عن حقه فى التصويت ضد كل من يحاول أن يسلبه هذا الحق ••**

ولكن هذا البرلمان الذى يحرص المواطن على التمسك به والذود عنه •• هل يكفى وحده لاقامة صرح ديمقراطية حقيقية؟

فليكن لكل دولة برلمانان : واحد سياسى ، وآخر اجتماعى !

◆ يذهب الباحثان « سيدنى وبياتريس ويب » ـ وهما من أخيار المراجع التى يعتد برأيها فى هذا الموضـوع ـ الى أن حضارة معقدة كحضارتنا الحديثة لا يمكـن الاشراف عليهـا بواسطة برلمان واحد ، وانما لابد لهـا من برلمانين أحـدهما سياسى ، والثانى اجتماعى !

وهو رأى وجيه ، فان هيئة واحدة لا تستطيع عملا معالجة جميع مشكلات المجتمع : السياسية، والتجارية، والقانونية ، والثقافية، والفنية •• وما دام الصوت الذى يساهم فى انتخاب هذه الهيئة هو بمثابة تفويض مطلق لمدة خمسة أعـوام كاملة ـ أو نحو ذلك ـ فلا مفر من أن يجد الناخب نفسه مضطرا ، كى يفضل مرشحا معينـا ، الى أن يراعى عشرات الاعتبـارات المتضاربة، التى لا تمت لمصلحة الوطن بصلة فى آخر الامر!•• ولكى نقرب المشكلة الى الاذهان يحسن أن نتصور أنفسنا فى مكان الناخب ، ونلمس مقدار الحيرة التى يعانيها : فهذا مرشح ينتسب لحزب يؤمن بوجوب رفع أجور العمال •• وذاك مرشح

يمثل حزبا آخر من مبادئه خفض الضرائب على رؤوس الاموال، أو زيادة ضريبة الارباح الاستثنائية، أو توزيع الاراضى الزراعية على صغار الفلاحين، أو تغليب مصلحة التجار على مصلحة المستهلكين ، أو العكس .. الخ ، ثم هناك مرشح ثالث من حزب عرف باتجاه معين فى السياسة الخارجية ، أو بمذهب معين فى العدالة الاجتماعية ، أو بميل معين الى الاشتراكية ، أو الرأسمالية .. أو .. أو الى غير ذلك من **عشرات الاعتبارات المتضاربة التى يواجهها الناخب ويتردد بينها . والناخب قد يكون فلاحا ، أو موظفا ، أو تاجرا، أو رأسماليا ، أو عاملا ، أو .. الخ. ومن ثم فهو ينتخب المرشح الذى تتفق أغراضه أو مبادىء حزبه مع مصلحته هو الشخصية .** وهذه المصلحة تكون مرة اقتصادية ، وآونة اجتماعية ، وثالثة سياسية !.. وهكذا لا تظفر اعتبارات الوطنية ومصلحة البلاد بنصيب يذكر وسط هذا الخضم المتلاطم من الاعتبارات ..

التوفيق بين مصلحة الناخب .. ومصلحة البلاد

◆ والحل العملى الوحيد لهذه الفوضى هو أن تتعدد البرلمانات، بحيث يختص كل منها بناحية واحدة من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. فيعطى الناخب صوته عند انتخاب كل برلمان منها للمرشح الذى يحقق مبادئه فى كل ناحية منها على حدة ولا يجد نفسه مضطرا، كما هى الحال الآن، الى انتخاب شخص تروقه آراؤه الاقتصادية ولا تروقه مبادىء حزبه السياسية .. أو ترضيه آراؤه السياسية وتنفره آراؤه الاجتماعية، أو العكس .. الخ ــ أو بعبارة أخرى فان الحل الوحيد هو العدول عن نظام « الصوت الواحد للمرشح الواحد » ــ الذى هو النظام الحزبى الحالى ــ الى نظام « الصوت الواحد للموضوع الواحد » الذى هو نظام الديمقراطية المثالية .

ق : قابلية التطور

◆ على اننا قبل أن نقترح صورة من صور التطور السياسى المطلوب، يجب أن نمهد لذلك بدراسة قابلية الانسانية للتطور. **وهنا نجد هذه (الشهية) للتطور لا تتوافر فى جميع البالغين. ومن ثم يبدو بوضوح ضرر مبدأ اباحة حق الانتخاب لجميع البالغين، اطلاقا. والوضع الصحيح ان الطبيعة تعد نسبة معينة من النابهين لتنظيم وادارة الدولة .. تماما كما تخص نفرا معينا من الناس بعقلية تحسن قرض الشعر، أو الرسم، أو الموسيقى، أو القانون، أو الطب، أو الدين، أو الحرب، أو الرياضة، أو الاجرام !**

والمشاهد انه منذ عهد كونفوشيوس، وسقراط، وأفلاطون.. الى عهد المسيح، ومحمد، ولوثر، وكلفن، وروبرت أوين، ولاسال، وكارل ماركس، وبنتام، وريتشارد فاجنر، ورسكن، وستيوارت ميل، ولينين، وتروتسكى، وستالين .. لم ينقطع تتابع الرسل والحواريين ذوى النزعة الثورية الاصلاحية .. ولكن رغم أنهم أحدثوا انقلابات فى المذاهب والنظريات، بل ومنهم من أسسوا حضارات جديدة كالمسيحية والاسلام، ومن تولوا الحكم فترة من الزمان (مثل «كلفن» فى جنيف) .. رغم هذا فان أكثر التطورات التى أحدثوها كانت اسمية فقط ! فقد ظلت الحكومات اللاحقة تميل الى ممارسة الوحشية كمثيلاتها السابقة .. ورأينا بين عباد المسيح من أقاموا « محاكم التفتيش » فى أسبانيا بغرض التعذيب ! .. ومن شنوا حربا باسم المسيح، هى حرب الثلاثين ! .. ثم رأينا جنود النازى فى ألمانيا يتوهمون أنفسهم من أتباع «نيتشة» ويعدون زعيمهم تلميذا ل « فاجنر » .. وهكذا تحول اهتداء المتوحشين الى المسيحية، ارتدادا من المسيحية الى الوحشية !

٤ : عجول ذهبية

◆ ولا يرى شو مخرجا ما من هذه المصاعب ، ما ظل زعماء الديمقراطية يصرون على تألية الناخب وتنزيهه عن الاخطاء . ويتعنتون رافضين اعادة النظر فى نظام اباحة حق الانتخاب ، على ضوء الحقائق التجريبية والادراك السليم . فى حين انهم لو تبصروا قليلا لاستطاعوا أن يهتدوا الى أجوبة على الاسئلة الجوهرية الآتية وهى : أى قدر من الرقابة على الحكومة يحتاجه المواطن كى يحمى نفسه من الطغيان ؟ .. والى أى حد هو كفء لممارسة حقه فى الانتخاب دون « تحطيم » نفسه ومواطنيه ، بل وهدم المدنية ذاتها ؟

.. وهذا هو « مربط الفرس » فى رأى شو : **فهو لا ينكر ، بل يسلم ، بحق المواطن فى أن يمكن من اختيار حاكميه . ولكنه يعترض على مدى ذلك الحق ، فيتساءل : « أى قدر من الخيار يجب أن يعطى للناخب ؟ وهل يباح له أن ينتخب « عجلا ذهبيا » كى يعبده ، كما فعل فى صحراء سينا ؟ أو « قطة » يؤلهها كما فعل أجداده فى مصر القديمة** ؟ أو شيخا معصوما من الخطأ كما تفعل بعض القبائل البدائية حتى الآن ؟ أو .. أو .. الى آخر الامثلة المشابهة ؟

كلا بالطبع .. والا لارتكبنا ذات الخطأ « القتال » الذى نرتكبه لو تركنا أطفالا أغرارا يمرحون فى صيدلية ويعبثون بقوارير السموم ! .. أو لو فتحنا للوحوش فى حديقة الحيوانات أبواب أقفاصها .. على مصاريعها !

.. واذن فالسبيل الوحيد لحماية الشعوب من أمثال هذه الاخطار هو قصر حق الانتخاب على المتعلمين ذوى الرأى الناضج ، وفى هذا قدر كاف من رقابة الشعب على الحكومة . ولا يجب أن ننسى أنه حين بدأت الديمقراطيات تجربة البرلمانات ، كانت

الشعوب تراعى فى مرشحيها توافر نصاب معين من الاملاك ، فكان هذا يكفل على الاقل نصيبا من التعليم « الابتدائى » فى « مشرعينا » ! •• ولكن هؤلاء أساءوا استعمال سلطانهم بشكل « مدمر » وتكالبوا على تحقيق مصالحهم الذاتية ومصالح طبقتهم المترفة •• فظنت شعوبهم ان المهرب من هذا هو الغاء النصاب المالى وعدم اشتراط أية مؤهلات فى المرشح على الاطلاق •• ولكن هذا كان بمثابة « استجارة من الرمضاء بالنار » •• النار التى تحرقنا جميعا الان !

يجب قصر حق الانتخاب على المستنيرين

ولعل « التاريخ الطبيعى » يتكفل بتفسير هذه الظاهرة ، فهو يدلنا على أن البشر يختلفون فى مقدرتهم السياسية اختلافا بينا ، ليس فقط بين فرد وفرد ، بل ومن سن الى سن عند الفرد الواحد • وأمام هذه الحقيقة المجردة يكون من الحمق والخبل مواصلة الادعاء بأن « صوت الشعب هو صوت الله » •• **وعند ما قال فولتير ان «رجل الشارع» أرجح رأيا من أى فرد بعينه، لم يكن قد شهد تجربة الانتخاب العام تنفذ فعلا !** واذا كان العالم يتألف من فئات متفاوتة الكفاءة من البشر ، فلا شك اننا لكى نحفظ مدنية العالم يجب أن نقتل بعض فئات البشر كما نقتل الكلاب المسعورة ، بينما نعهد الى فئات أخرى بزمام الحكم فى الدولة ! •• والى أن نتمكن من وضع مقياس علمى للتفرقة بين هؤلاء وأولئك ، يستحيل عملا اجراء الانتخابات على أساس الاستفتاء العلمى الذى يقصر حق الانتخاب على من يستحقون •• وبغير هذا الاستفتاء « العلمى » لابد أن تخفق ــ كما أخفقت فى الماضى ــ كل محاولة ترمى الى جعل الديمقراطية « الحقيقية » تسود العالم • واذن فتنسيق و « فرز » أفراد الشعب بمقياس علمى صحيح هو الخطوة الاولى نحو الديمقراطية الخالصة الحرة •

م : مســـاواة

◆ **رأينا** أن الديمقراطية تعنى المساواة٠٠فماذا تعنى المساواة؟ ٠٠ من الواضح أنها لا تعنى أننـــا جميعا متساوون فى الكفاءة السياسية ، أو فى أية كفاءة أخرى ، فان الطبيعة قد درجت على تقسيمنا الى مجموعات من البشر المتفاوتين فى القابليـــات والمؤهلات : فيهم نسبة معينة من الحمقى والبله ، ونسبة مـن العباقرة٠٠ ولكن لماكانت احتياجاتهم الجثمانية جميعاواحدة، فان من الممكن مثلا أن يقسم الطعام والملبس والمسكن عليهـم بأنصبة متساوية ، لانها بالنسبة لكل منهم ضرورات لا غنى عنها ٠ وهنا يلاحظ مثلا ان خادم السفينة أو البحار الشـاب يحتاج الى نصيب من الغذاء أكبر مما يحتاجه الاميرال العجوز كما أن حاجة الاسطول الى كليهما متساوية٠٠ورغم هذا يختلف ايراد كل منهما عن الآخر ٠ **ومن ناحية أخرى نشاهد أن جميع قادة الاسطول الذين من رتبة « أميرال » يتقاضون مرتبـات متساوية ٠٠ سواء كانوا فى حمـــاقة (بينجس) أو براعـة (نيلسون) !٠٠ كما ان البحارة يتقاضون مرتبا واحدا ، سواء كانوا سريعى الحركة أو بطيئها ، أذكياء أو أغبيـــاء !٠٠** وكل المجتمعات المتمدينة تتألف من طبقات تستوى فيهـا الاجـور والمرتبات بين الفرد والفرد فى كل طبقة منها ، بغض النظر عن اختلاف أفراد الطبقة الواحدة من ناحية الكفاءة والمواهب ، وهو اختلاف لا يقوم عادة بالمال ٠٠ فمثلا لا يستطيع أحد أن يزعم انه نظرا لان ايراد (جولويس) بطل العالم فى الملاكمة فى الساعة الواحدة يفوق ايراد العالم الشهير (اينشتين) فى ١٥ سنة فان قيمة « كد » الاول واجتهاده تزيد عن قيمة « كد » الثانى ١٨٠ ألف ضعف !!٠٠

كلا بكل تأكيد . وما من أحد اذا كلف بتحديد ايراد كل منهما حسب استحقاقه ، يستطيع أن يقول شيئا كهذا ، والا كان مثله مثل من يحاول أن يقوم ـ بالمال ـ الفرق فى الاهمية بالنسبة للاسرة ، بين مقلاة الطعام والكتاب المقدس !

الكتاب المقدس أرخص من زجاجة الخمر !

... ذلك أن ثمن كل من المقلاة والكتاب المقدس لم يحدد حسب استحقاقه وانما وفقا لنفقات انتاجه ، **لهذا تجد الكتاب المقدس يباع بثمن أقل من ثمن زجاجة الخمر .. والثوب بثمن أقل من الخاتم الماسى .. وذلك رغم ان فائدة الاولين تفـوق فائدة الآخرين بمراحل ! .. وعلاج هذه المفارقات أن تتـولى الحكومة مراقبة الانتاج بحيث يتمشى ثمن السلعة مع درجة حاجة المجتمع اليها** ، وبحيث لا يستطيع أحد أن يشترى خاتما مـن الماس بينما يوجد أطفال جياع وعراة !.. وبحيث لا يدفـع الشخص فى السلعة أكثر من متوسط تكاليف انتاجها . ولكن قبل بلوغ هذه المرحلة ـ مرحلة الاشتراكية ، أو المدنية ، أو الانسانية ، أو ما شئت تسميتها ـ يجب على الحكومة أن تزود البلد بالاكفاء من الرؤساء والمرؤوسين ، وان تحدد مرتباتهم. وهنا يسهل على السـياسى الديموقراطى أن يثب من هـذا الاسترسال الى نتيجة مؤداها أننا اذا كنا متساوين جميعا فى نفقات المعيشة ـ بغض النظر عن تفاوت كفاءاتنا ـ فان أوفق حل هو أن يتقاضى كل منا نصيبا متساويا من الدخل القومى للدولة . ولكن هذا الاستنتاج يقود صاحبه حتما الى مجـافاة حقيقية أخرى ، هى أن نفقات اعداد « الاميرال » تزيد اضعافا مضاعفة عن نفقات اعداد البحار البسيط، رغم تساوى احتياجات الاثنين ككائنين بشريين .. واذن فلو ساوينا بين الطبقتين فى المرتب لنجم عن هذا «طوفان» من البحارة، وعجز بل قحط تام فى

القواد ! ... وكذلك الحال بالنسبة لنفقات اعداد المشرعين والمحامين والاطباء والقسس والفنانين والفلاسفة . وحينما فكرت روسيا السوفيتية فى اعطاء كل العمال أنصبة متساوية من الدخل القومى الذى يدره انتاجهم على الدولة ، اكتشفت ان انتاجهم لا يكفى لكى يوفر لكل منهم ايرادا يزيد عما كان يتقاضاه أصغر عامل فى عهد القيصرية .

المساواة فى الدخل .. متعذرة

◆ فالمساواة فى الدخل اذن أمر يجب أن يصرف النظر عنه ، حتى الوقت الذى يستطاع فيه رفع نصيب كل فرد من ايراد الدولة الى المستوى الكافى للجميع . وهو مستوى يمكن بلوغه فى المستقبل . أما الآن فحتى فى روسيا ما يزال يوجد نظام طبقات .. وطبقة من أرباب الحرف يزيد ايرادهم عن ايراد قاطعى الاخشاب عشرة أضعاف !

والسياسى الذى يهدف الى المساواة فى توزيع الدخل سيجد أن عليه تحديد رقم لدخل كل فرد مرتفع نسبيا بحيث لا يدع مجالا لعدم الانتفاع بأية كفاءة أو عبقرية بسبب نقص وسائل استثمارها الى الحد الاقصى . ولما كان هذا الرقم سيزيد فى بادىء الامر عن ذاك الذى ينتج من تقسيم دخل الدولة على عدد أفرادها بالتساوى . فاذن يكون أمام السياسى أن يحتفظ بدخل ذوى المهن عند هذا الرقم المرتفع ، ثم يقسم الباقى على بقية الافراد . على أن ينتهز كل فرصة فى المستقبل وكل حيلة لزيادة الدخل القومى ، ومن ثم لرفع أدنى الاجور الى الدرجة التى تليها وهكذا ، حتى يصل الجميع الى مستوى الرقم الاعلى المحدد ، وتتحقق المساواة فى الدخل عملا ، ان لم يكن حسابيا .

ف : فوارق الطبقات

◆ ذلك ان المساواة الحسابية ليست هدفا فى ذاتها ، فانه اذا كان الفارق شاسعا مفجعا بين طبقة الصناع والعمال ذوى الايراد المتراوح حول المائتى جنيه سنويا ... وبين طبقة المترفين الخاملين الذى يتراوح دخلهم حول الخمسة آلاف سنويا ، وهم الذين تمنعهم الانفة من الاختلاط والتوالد مع طبقة العمال ... الا أن الفارق يقل أهمية ونطاقا كلما ازداد ايراد الطبقات ، فيقل مثلا بين طبقة ذوى الدخل البالغ خمسة آلاف وطبقة ذوى الدخل البالغ خمسين ألفا ، اذ يكاد أفراد هاتين الطبقتين يتساوون فى مستوى المعيشة ورفاهيتها .. فان من يملك منهم خمسة منازل لن يمتاز عمن يملك منزلين فقط ، لان كليهما لن يشغل فى الوقت الواحد أكثر من منزل واحد .. وكليهما يلجأ الى نفس الطبيب، والمحامى، والتاجر.. كما يتزاوج أفراد الطبقتين ويختلطون

فاذا أدركنا هذا تبينا انه حين يرفع مستوى ايراد جميع أفراد الشعب الى مستوى الخمسة آلاف جنيه مثلا ، يكون الغرض الاساسي من المساواة فى الدخل قد تحقق .. وعندئذ، ولو أن الحكومة ستظل تسهر على أن لا تهبط طبقة ما عن هذا المستوى ، الا أنها لن تكون فى حاجة الى الحيلولة بين أى فرد وبين الازدياد فى الغنى اذا استطاع ، أو رأى ان الامر يستحق عناء تحقيقه . بل لعل هذا المطمح يكون جديرا بالتشجيع كباعث يحرض الفرد على زيادة انتاجه .

وقد وجدت روسيا بالتجربة ان زيادة الانتاج أو حتى المحافظة على مستواه أمر يستحيل عملا ما لم تزداد المرتبات بازدياد الانتاج .

والخلاصة انه حين تكفل الاشتراكية الديمقراطية كفاية

الوسائل لكل فرد ، أو المساواة فى الفرصة ، ثم تكفل التزاوج بين الجميع ، تكون قد حققت رسالتها ٠٠ لان هذه الاموز كلها وليست المساواة « الحسابية » هى هدفها الحقيقى ٠ **وعندئذ يرتفع المستوى الاجتماعى للبشر الى الحد الذى يكفل عدم تعريض أى فرد لخطر الموت جوعا ، ولكنهم سيظلون دائما بشرا ، فيهم الممتازون وفيهم المتوسطون وفيهم الوضيعون !٠٠ ولكنهم سيستمتعون جميعا بالغذاء الكامل ، والعلم الى أقصى حد تقبله عقلياتهم ، والتزاوج المشترك بين جميع الطبقات ٠ وأكثر من هذا لن تستطيع المساواة أن تتقدم خطوة ! ٠٠**

م : مقياس التفرقة بين بنى البشر ، الموهوبين والخاملين !

◆ ثم يضيف « شو » انه قد شرع منذ سنوات فى البحث عن مقياس للتفرقة بين البشر فى الكفاءات والمؤهلات ، بأن سأل الصحفى الامريكى « ستانلى » ــ الذى جاب أفريقيا على رأس بعثة للبحث عن « لفنجستون » محرر العبيد ــ عن نسبة من وجدهم من رجاله قادرين على « التزعم » وادارة شئون البعثة حين اضطر الى التغيب عنها زمنا ما ٠٠ فأجابه الصحفى فورا وبلهجة الجزم « خمسة فى المائة فقط ! » ٠٠ فعاد شو يسأله عما اذا كان هذا مجرد تخمين أم تقدير مبنى على استقراء دقيق ٠٠ فأجاب ستانلى ــ دون تردد أيضا ــ انه تقدير دقيق !

ويخرج شو من هذا بأننا لو أخذنا بهذا التقدير ــ ما دمنا عاجزين عن الاهتداء الى مقياس أدق ــ لكان معناه انه لا يصلح لشئون السياسة والحكم ، من بين أفراد الشعب البالغ عددهم أربعين مليونا مثلا ، سوى مليونين فقط !

٠٠ وهنا ينشأ التساؤل : « ولكن ، الى أية درجة يصح وينطبق هذا التقدير ؟ » ٠٠ وجواب ذلك ان ستانلى قد وجد بين كل عشرين شخصا واحدا يصلح لادارة شئون بعثته

الافريقية · **ولكن لو أن تلك المهمة احتاجت الى شخص له كفاءة «يوليوس قيصر» لما كان قد وجد منه واحدا بين كل عشرين ، أو حتى بين كل ألف ·· وانما واحدا وحيدا بين جميع سكان المعمورة ، هو « يوليوس قيصر » ذاته ! ·· أو انه ـ بعبـارة أخرى ـ ما كان ليجد الشخص المطلوب على الاطلاق** · والتاريخ حافل بالامثلة على ذلك ، فمثلا كان البابا « يوليوس الثانى » يستطيع أن يجد عددا كبيرا من الرسامين كى يزينوا كنيسـة «سيستين» بالنقوش ، ولكنه ما كان ليجد بينهم غير «مايكل أنجلو» واحد ! ··· كما ان الملك جيمس الاول كان فى مقدوره أن يعثر بالعشرات من مؤلفى الروايات التمثيلية فى عصره ، ولكنه ما كان ليجد بينهم غير « شكسبير » واحد !·· وهكذا·

ليوضع كل مواطن فى موضعه المناسب لمؤهلاته !

وبين هذه الحالات التى يعثر فيها برجل ممتاز واحد ـ « سوبرمان » ـ كل خمسة عشر جيلا أو نحو ذلك ··· وبين مختـارى ستانلى ، الخمسة فى المائة ، الذين يوجـدون كل يوم ، تتعدد درجات الكفاءة فى كل مهنة أو حرفة من الحرف·· وهنا يسوق شو من نفسه مثلا فيقول : « لست أزعم اننى أمهر كتاب المسرح الانجليزى ، ولكنى أحسب نفسى واحدا من العشرة الاوائل فى هذا الفن » ·· ثم يخرج من هذا بأن **أعظم عبقرى فى مهنة معينة قد يكون ضعيف العقلية فيما عداها · ولئن كان هو ذاكفاءة ممتازة فى الكتابة للمسرح ، الا أنه لو اشتغل فى مرصد فلكى مثلا فلربما فصل من عمله قبل مضى أسبوع واحد··** أو ربما كلف بمسح وتنظيف آلات التلسكوب ! وهو حتى فى هذا العمل التافه قد يكون أعجز من أغبى خادم محترف · واذن فنجاح أى عمل يتوقف على اختيار الاشخاص المناسبين للقيام به من ناحية استعدادهم الطبيعى ، ووضعهم فى الامكنة والمراكز

التى يصلحون لها .. وما من معهد للموسيقى يمكن أن ينجح فى رسالته لو أختير لادارته شخص « أصم » من ناحية الحاسة أو « الاذن » الموسيقية .. كما لن ينجح معهد للرسم يديره شخص مصاب بعمى الالوان !

◆ **أما والامر كذلك ، فان أضخم وأصعب عمل فى العالم ، على الاطلاق ، هو ادارة وتنظيم الدولة الديمقراطية الحديثة .. التى يجب أن تهيىء لكل مواطن فرصة تأدية عمل نافع ومدر للربح، على أن يكون قبل ذلك كله عملا يناسب مؤهلاته. أما لو أديرت دفة الدولة بحيث يوضع الاشخاص الاكفاء فى وظائف لا تناسب كفاءاتهم ، وغير الاكفاء فى وظائف لا تتناسب وعجزهم ، فان النتيجة الحتمية لذلك هى انهيار تلك الدولة ..** ثم وقوعها فى يد أى مغامر «نابليون» له من الحمق ما يجعله طموحا ، ومن الكفاءة ما يجعله قديرا ـ كما قال موسولينى ذات مرة ـ على « تنظيم الاسطبل » !

هل من صلة بين النجاح والكفاءة ؟

وهنا لا يرى « شو » بدا من ابراز تفرقة أخرى بين الكفاءة « العملية » والنظرية ، فيقول انه بينما كان يسير ذات يوم ـ منذ ستين عاما ـ فى حديقة هايدبارك ، حيث يستطيع أى مصلح اجتماعى أو واعظ دينى أن يجمع حوله حشدا من السامعين بمجرد الوقوف فوق مقعد ومخاطبة الهواء ، صادف شخصا يدعى كابتن ويلسون ـ هو الان نسى منسى ـ كان يبشر بانجيل أطلق عليه « الادراك السليم » ويستحث سامعيه على أن يكونوا « حسني الادراك » كى ينجحوا فى الحياة ! ولكن حسن التقدير وسلامة الادراك، فى رأى شو، شىء مختلف كل الاختلاف عن الكفاءة العملية ، فانه يندر أن يكون رجال الاعمال الناجحون مفكرين سليمى الادراك ! ... **والعالم ملىء بالمحامين الافذاذ**

الذين يجهـلون القانون الحرفى جهلا يكاد يكون تاما ! ٠٠ والاطباء الذين لا يعرفون عن « البيولوجى » شيئا ٠٠ والوعاظ غير الملمين بأصول الدين ٠٠ ورجال الادارة الذين لا يعملون شيئا غير تكرار ما عملوه فى المرة السابقة ٠٠ والعمال المهرة الذين لا يعرفون عن عملهم أكثر مما تعرف الآلات التى يديرونها ٠٠ بل وما أكثر رجال السياسة الذين قرأوا أنه كلما زادت صادرات الشعب زادت ثروته ، فخيل اليهم ان معنى هذا ان أقصر السبل الى الرفاهية ألا ينتج الشعب شيئا للاستهلاك المحلى بل يصدر كل منتجاته الى الاسواق الخارجية !٠٠

شىء خير من لا شىء !

ولكن ، اذا كان ترك هؤلاء الجهلة الناجحين (من المحامين او الاطباء او رجال الدين او العمال ..الخ) يستمرون فى مزاولة مهنهم المختلفة ، هو على اطلاقه تصرف خاطىء ٠٠ فان من الخطأ أيضا أن نغالى فى عكس الوضع الى حد عدم السماح لشخص ما بمزاولة أية حرفة لا يفهمها جيد الفهم ، فان هذا مثل اشتراط ان لا يرضع الطفل من ثدى أمه ما لم يكن ملما بأسماء المـواد التى يتركب منها اللبن !٠٠ والواقع ان هناك أعمالا كثيرة لا مفر من أن يتولاها أناس لا يفهمون ما يعملـون ، وان كانـوا يستطيعون تأديته دون أن يفهموه !٠٠ صحيح انهم قد لا يؤدونه على أكمل وجه ، ولكن لابد من أن يؤدوه على أية حال ٠ ومهما أساءوا فذلك خير من أن يبقى العمل بلا أداء ٠٠ ومثل هذا مثل اضطرار أم الى تغذية ابنها بغذاء ناقص الفائدة ، مفضلة ذلك على تركه يموت جوعا !!

◆ فواجب الديمقراطية اذن أن تعتمد فى تنظيم الدولة على أساس اختلاف المهن والحـرف بين أفراد الشعب الواحـد ، **ثم على اساس التفاوت فى الكفاءة والمقدرة بين من يزاولون المهنة**

الواحدة . وكما أن الدراسة الاجتماعية قد أفضت الى تقسيم الامهات الى فئات ثلاث: ١ ـ أمهات يحسن بطبعهن تربية الاطفال ٢ ـ وأمهات يستطعن تربيتهم بعد الاستعانة ببعض النصائح والارشادات ٣ ـ ثم أمهات عاجزات عن تربية الاطفال الى حد انهن يجعلن منهم لصوصا وعاهرات ! .. كذلك يوجد هـذا التفاوت ذاته بين مزاولى كل مهنة أو حرفة .. فبينما نجد أطباء مهرة نابهين ، نجد آخرين يكفى أن يدخلوا حجرة المريض كى يضيعوا آخر فرصة له فى الشفاء ! وبينما يوجد محـامون يفكون عن الرقاب حبال المشانق ، يوجد آخرون عرفوا بعـدد الابرياء الذين قادوهم الى المشنقة ! .. وهكذا الحال بالنسبة للتجار والقواد والمهندسين والصناع .. الخ ـ ففى كل مهنـة يوجد الناجح والفاشل والمتوسط . وما من شىء يقدر أن يغير أو يبدل فى هذه الفوارق الطبيعية بين البشر من ناحية الكفاءات والمؤهلات .

ع : عوائق اجتماعية

◆ **ولكن** من الظلم أن نجعل عامل التفاوت فى الكفاءات مسئولا وحده عن نجاح الفرد فى مهنته أو فشله .. فان مجتمعنا ملىء بأمثلة حالات الفشل التى لم تنشأ عن نقص طبيعى فى كفاية الشخص بل عن ضغط المجتمع ، الذى لا يفتأ « يـدق الاوتاد المربعة فى ثغرات مستديرة » ! .. ويمثل شو على هذا باثنين من أجداده : كان أحدهما بارعا فى الصناعات اليدوية الى حد أنه كان يبنى قوارب الصيد بنفسه ، **ولكن مركزه الاجتماعى ـ كثرى صاحب ضياع واسعة و « جنتلمان » ـ حرمه من أن يكون عضوا نافعا للمجتمع عن طريق موهبته الصناعية ، كما حرمه من كسب المال بواسطة اسـتغلال براعتـه اليـدوية .** وبالرغم من ذلك فقد آثر أن يترك ضياعه فى يد وكيله ـ حتى

جلب عليه الافلاس ـ وهاجر هو الى مقاطعة أخرى عاش فيها حياة خاملة، يصيد الوحوش والاسماك!٠٠ فهو لم يكن ناقص الكفاءة أو معدوم النشاط ، بل كان على عكس هذا تماما ، وانما كل ذنبه انه وجد فى مجتمع يتمسك بالمظاهر الكاذبة ويدق الاوتاد المربعة فى ثغرات مستديرة ! ٠٠ ولو وجد فى مجتمع منظم لكان قد بنى لنفسه مستقبلا زاهرا كصانع ناجح ونافع ٠

أما الجد الآخر لشو فكان يمارس لونا من ألوان «النصب» الاجتماعى ٠ ورغم مظهره المحترم كواحد من سلالة ذوى الدم الازرق فى ايرلندا ، فانه لم يتورع عن ممارسة الربا سرا فى حى من أفقر أحياء « دبلن » ٠ أما كيف قيض له أن يرزق بحفيد مثل « شو » محروم من هذه « الموهبة » بتاتا ، فسيظل أمرا غير مفهوم ، بل لغزا « بيولوجيا » !

ويقول شو فى معرض السخرية انه ما كان لينجو من سنوات الافلاس التى اعترضته فى صدر شبابه ، حين كان الناشرون يرفضون كتاباته ، لولا أموال الربا التى خلفها له جده والتى أعانته على اجتياز تلك الاعوام ٠٠ بسلام !

◆ **كل** هذه وأمثالها عوائق اجتماعية تزول حتما لو قدر للمجتمع أن ينظم تنظيما أفضل ٠٠ فعندئذ لن يقتصر الامر على ايجاد «حفر مربعة للاوتاد المربعة»: بل ان تلك الاوتاد ستجد من الضغط الاجتماعى عاملا يدفعها الى داخل الحفر دفعا ولا يعوقها كما هى الحال الآن ٠ وهذا لا ينفى انه ستبقى هناك نسبة غير قابلة للتخفيض من التفاوت فى المهارة العملية بين محترفى جميع أنواع الحرف والمهن ٠

ومن الثغرات الخطيرة التى يجب على المجتمع أن يجد لها حلا أو علاجا ما يكفى فى شرحها هذا المثل : فقد يوجد شخص ذو كفاءة تجارية من الدرجة الاولى ، قد أسس عملا ضخما وظف فيه ألوفا من الايدى العاملة بغية انتاج بضائع ـ

أو خدمات ـ حيوية للمجتمع • ثم يموت هـذا الشخص تاركا مؤسسته الضخمة لابن له أو قريب ليست له فى ذلك النـوع من العمل الاكفاءة من الدرجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة •• أو لا كفاءة له فيها على الاطلاق ! •• فلا يلبث العمل أن ينهار ويدركه الفشل، ان عاجلا أو آجـلا•• **ومن حسن الحظ أن وظائف الدولة والمؤسسات العامة لا((تتوارث)) بهذا الشكل!••** فيما عدا العروشر ، التى جعلت هكذا لحكمة خاصة هى عدم تعريض البلدان للحروب الاهلية التى لا مهرب منهـا لو ترك الملك عرضة لاى نوع من التسابق أو التنافس عليه !

١ : انتقاء الزعماء

◆ **تبقى** مشكلة أخرى هى مشكلة وجـوب قصر اختيـار الناخبين للزعماء والساسة على الاكفاء دون غيرهم ! •• ولكن قبل الاهتداء الى حل لهذه المشكلة يجب تعريف الكفاءة السياسية وتحديد صفات من يستحقونها •• أو بعبارة أخرى يجب معرفة متى يكون الزعيم كفؤا ومتى لا يكون • **وأول ما يجب البدء به فى هذا المجال هو اعداد سجلات أو قوائم تضم كل قائمة منها أسماء القادرين ـ عقليا ـ على أن يؤدوا باقتدار وجدارة أعمال المستشارين أو المديرين أو وزراء الداخلية أو الخارجيـة أو المالية •• الخ** ـ ولكن هذا لايمكن التوصل اليه بدون الاهتداء الى مقاييس علمية واختبارات خاصة تفصل بين الاكفاء فى كل منصب وغير الاكفاء • وأول ما يلاحظ على طريقة الدول الحالية فى اختبار صلاحية الافراد للاعمال التشريعية بواسطة انتخابات يشترط فيها حصولهم على أغلبية الاصوات فى أقاليم مختلفة تتفاوت فيما بينها تفاوتا كبيرا من حيث مدارك الاهلين وأخلاقهم ••• أول ما يلاحظ على هذا النوع من « الاختيـار عـن طريـق الانتخاب » انه لا يفضى الى استقراء مقياس مشترك للـكفاءات يصح الركون اليه •

أما فيما يتعلق بالمناصب الكبرى فى الدولة فما زالت طريقة اختيار من يملؤونها هى أن يرشح رئيس الوزراء أفرادا معينين يختار الملك أحدهم لكل منصب . **والمأخذ على هذه الطريقة هوانها تحصرالترشيح فيمن يعرفهم رئيس الوزراء من الاكفاء ، وليس فيمن يحتوى المجتمع فعلا عليهم ! .. ولا محل للجدل حول الفرق بين ضيق المجال الاول وكون الامر فيه مرهونا بالصدفة والمعرفة الشخصية .. وبين سعة المجال الثانى : وعموميته ، وعدالته !** ... وهذا غير الحال فيما يتعلق بشغل الوظائف الصغيرة فى الدولة ، فان الآلاف الذين يختارون لها انما يختارون بالطريقة « الصينية » ، طريقة الامتحان الكتابى أو الشفوى ثم الكشف الطبى . أو اذا أخذنا « بالموضة » الحديثة فهم يختارون بواسطة « اختبارات الذكاء » وهى أسهل وأسرع فى التنفيذ . وسواء اختيروا بهذه الطريقة أو تلك فان أشخاصهم فى الحالين تكون مجهولة من رياسة الوزراء ..

ف : فوارق الطبقات أيضا

◆ **وقد** رأينا فى الفصل الذى تحدثنا فيه عن « المساواة » ، استحالة تحقيق هذه المساواة بين البشر كافة من حيث الدخل أو الايراد ، نظرا لاستحالة المساواة بينهم من حيث الانتاج ، الامر الذى ينجم بدوره عن استحالة المساواة بينهم من حيث الكفاءة والمؤهلات ـ الطبيعية لا المكتسبة ..

والآن نتحدث عن فكرة الغاء نظام الطبقات من وجهات أخرى ٠٠ فنقول ان المدنية تستتبع حتما تقسيم العمل بين أفراد الشعب بحيث يقوم كل فرد بنصيب معين ، وبحيث تسود الجميع فكرة التعاون لا العزلة ٠٠

ففى العصور الحديثة لم يعد للرجل المنعزل مكان ٠ ولو سئل « روبنسن كروزو » فى عصره : « ماذا » أنت ؟ لما كان للسؤال معنى ، لان جوابه واحد لا يختلف باختلاف الافراد ، وما جوابه الا أنه « انسان » فقط ! ٠٠ أما فى المجتمع الحديث فالانسان اما سمكرى أو ترزى أو جندى أو بحار أو رجل غنى أو فقير أو لص ٠٠ حسب عمل كل مواطن ! ٠٠ وكل فئة من هؤلاء تدل فى ذاتها ويدل متوسط ايرادها ، ليس فقط على مهنتها ، بل وعلى الطبقة التى تحتلها من حيث المركز الاجتماعى ٠ ولما كان رجل الشارع يحتقر بطبعه ذوى الدخل القليل و « يعبد » ذوى الدخل الكبير ، فانه يكون عادة متعاليا فى معاملته للفقراء وذليلا فى معاملته للاغنياء ! ٠٠ وهذا « الابتذال » المزدوج هو صورة دقيقة للطبقة الوسطى من الناس ٠ فالميكانيكى الماهر يزدرى العامل الصغير ولكنه يحترم رئيسه ٠ والموظف الكبير يحتقر التاجر ولكنه ينحنى اجلالا لصاحب الاملاك ، أكثر مما ينحنى ساقيه الخاص ! ٠٠ ومع ذلك فان فروق الطبقات التى يخلقها تفاوت الدخل سرعان ما تنتج آثارا مستقلة ، وأحيانا عكسية ، للفرق فى الدخل ٠ ويمثل شو لهذا ب « الترزى » الذى يحيك له ثيابه ، فانه رغم كونه أغنى من والده ــ كان يعامله معاملة الشخص لمن يفوقه فى المركز الاجتماعى ٠ **وكذلك ابن الدوق قد يكون معدما وعاجزا عن دفع دينه لبائع الجبن ، ولكن هذا ، مهما كان غنيا ، لا يفكر فى تجاهل الاوضاع الاجتماعية ٠٠ وحينما كان متوسط أجر الموظف الكتابى فى لندن ١٥ شلنا فى الاسبوع كان أجر الميكانيكى الحاذق جنيهين**

(٤٠ شلنا) • ورغم هذا كان الآباء يعدون أبناءهم لان يصيروا كتبة وليسوا بنائين أو نجارين أو حدادين •• لان الجاكتة والياقة المنشاة والريشة أو القلم كانت فى عرفهم أدعى الى الاحترام من سترة العامل الزرقاء ومنشاره أو مطرقته ! ••• والتخلص من هذه المفارقات أصعب من التخلص من فوارق الطبقات ذاتها ، الناشئة فقط عن تفاوت مستوى الدخل بين الغنى والفقير • وهى لن تختفى الا حين يرتفع نصيب الفرد من الدخل القومى ـ الذى نسميه الحد الادنى للاجور ـ الى الدرجة التى تقف فيها مسايرة طعام الشخص ، ومسكنه ، وملبسه وتعليمه ، للزيادة فى ايراده •• حتى لو بلغت هذه الزيادة عشرة آلاف جنيه فى السنة ! •• بل ان هذه الفوارق لن تختفى الا حين يرتفع دخل الفرد الى الحد الذى تعجز معه أية زيادة فيه عن اعفاء الشخص من تأدية نصيبه اليومى من خدمة وطنه :

ازالة فوارق الطبقات لن تقضى على المنازعات

◆ **وانه لمن الخطل أن يتصور أحد ان زوال فوارق الطبقات المبنية على تفاوت الدخل سيزيل معه أسباب النزاع بين البشر ، فان المنازعات موجودة دائما بين أفراد الطبقة الواحدة ـ المتساوين فى الدخل ـ** لانه اذا اختفت العوامل المادية للنزاع، بقيت عوامله الاخرى ، السياسية مثلا •• بل بقى من عوامل النزاع اختلاف الميول والاذواق ، وكل هذه عوامل كافية لاثارة حروب أهلية بالغة القسوة والتوحش • بل لعل زوال الطبقات سيزيد مجال النزاع اتساعا ، لان هناك فريقين من الناس ـ هم الفقراء المعدمون ، والاثرياء المترفون ـ تشغلهم الان عن الاهتمام بالمنازعات السياسية أمور أخرى ، هى بالنسبة للاولين هموم العيش وارهاق العمل •• وبالنسبة للآخرين خمول الترف وتخمة الوجبات «السبع» من الطعام التى يتناولونها كل يوم! ••

فبالنسبة لهذين الفريقين لا مفر من أن يفضى زوال الطبقات الى نزول أفرادهما الى معترك المجادلات السياسية والتحزبات الطائفية ، وازدياد المنازعات فى ميادينها ٠٠ وقد ينام الاسد بجوار الحمل ، أو على الاقل يستغنى عن التهامه ، ولكن ستبقى هناك أسود تفترس حملانا ! ٠٠ وستستمر المنازعات بل تقوى بين الشيوعى والفوضوى ، أو بين الملكى والجمهورى ، والاستعمارى والاستقلالى ، والمسلم والهندوسى ، وأتباع مذهب العرى والمغالين فى التدين ٠ وكل هذه خلافات بذرتها موجودة الآن فعلا ولكنها مختفية تحت « حرب الطبقات » الماركسية (بنزاعها بين الرأسمالية والعمالية ، وبين الملكية الخاصة والعامة) ولكنها لن تلبث أن تنمو ويتضاعف خطرها حين يهدأ النضال الحالى حول الفقر والغنى ٠٠ بل لن تلبث أن تهب من مرقدها وتثير الحروب الشعواء من جديد !!

ن : نظام العالم الجديد

◆ **منذ** ستين عاما سأل شو صبيا صغيرا (صار فيما بعد شاعرا). عن المهنة التى يميل الى احترافها حين يكبر ، فأجابه الصبى جادا ان المهن كلها ستختفى حين تسود الاشتراكية ، كما فهم من خطاب سمعه من زعيم اشتراكى !٠٠ فذكره شو بأنه حتى فى أكثر الدول اشتراكية سيوجد أناس تكسر عظامهم ويحتاجون الى جراح يعالجهم ، كما ستحتاج المنازل كى تبنى الى بنائين ومهندسين، والاطفال كى يولدوا الى أطباء وقابلات٠٠ الخ وبالاختصار ستبقى المهن فى ظل الاشتراكية ان لم تزدد ! ٠٠ **لكن الصبى لم يقتنع ، فقد فهم الاشتراكية على انها نظام لن يحس انسان فى ظله بمرض أو برد أو جوع أو أى نوع من المتاعب ! وبدلا من أن يتخيل دولة يقوم كل فرد فيها بنصيبه من العمل ، تصور دولة لن يعمل فيها الانسان عملا ما ٠٠ !**

وحالة هذا الصبى ، وتصوراته ، ليست نادرة ·· ومن قبيلها ذلك اللغط حول « النظام الجديد » الذى قيل انه سيعقب الحرب الاخيرة ، وقد تنبأ فى صدده « شو » بأنه سـيكون كالنظام القديم ، عرضة لقوانين الطبيعة الخالدة ، التى قد يمكن صبغها بالصبغة الديموقراطية ، ولكن يستحيل الغاؤها ومحوها من الوجود تماما ! ·· والمشـكلات الرئيسـية التى ستحاول الاشتراكية حلها هى ذات المشـكلات التى حاولت الرأسمالية ـ وحاول نظام الاقطاع قبلها ـ ايجاد حل لها ، ففشلا ! ·· **لهذا يرى شـو وجوب مصارحـة العالم بهـذه الحقائق منذ الآن ، ومن ثم وجوب أن يكون حكام العالم من الذين يفهمون هذه الحقائق ·· وليسوا من الجهال الذين لا يستطيعون قراءة هذا الكتاب دون أن يداهمهم النوم وهم عند الصفحة الاولى!**

حدث ذات يوم

من قصص التاريخ ومآسيه

عزيزى القارىء ...

تنطوى صفحات التاريخ على قصص من الواقع الحى اروع من كل خيال .. بل انها كثيرا ماتكون المنبع الذى يستقى منه خيال الروائيين وحى الكثير من قصصهم واعمالهم الفنية الممتازة ..

لذلك رأيت أن اقدم لك فى هذا الباب باقة من قصص التاريخ الشائقة التى تجمع بين المتعة ، كمادة للقراءة الطلية .. والصدق ، باعتبارها حقيقة وقعت فعلا ذات يوم .. ثم العظة والفائدة الثقافية التى لا تجارى ..

وقد قرأت فى ((كتابى)) الاسبق قصة ((لوكريشيا بورجيا)) سليلة السفاحين من آل بورجيا ، الذين نسج خيال القصاصين حولهم من تهاويل الدنس والمؤامرات وجرائم التسميم مالم ينسج مثله حول اناس من البشر !.. ثم قرأت فى ((كتابى)) السابق قصة لغز قيصر روما القديم ((تيبريوس)) ..

واليوم اقدم لك فيما يلى قصة : عشيقة نابليون (مارى فاليفسكا) .. يليها فى الاعداد القادمة بعون الله : سبايا بيزنطة الجميلات ، ماساة ((جوانا)) ملكة اسبانيا التى جنت من الحب والغيرة ، نهاية الجنرال ناى (اشجع الشجعان) ، رحلة ماجيلان ، قصة الليدى جين جراى ، ماساة النسر الصغير (ابن نابليون) الخ

عشيقة نابليون

مارى ڤاليڤسكا

للروائي المؤرخ «فردريك ماسون» عضو الأكاديمية الفرنسية

امرأة فى الزحام !

◆ **فى** أول يناير سنة ١٨٠٧ كان الامبراطور نابليون قادما من « بولستوك » الى العاصمة البولونية « فرسوفيا » ـ أو وارسو ـ حين توقفت المركبة الامبراطورية التى كانت تقله عن المسير عند حدود « برونيا » حتى تغير الجياد المتعبة بجياد أخرى ٠ وكانت الكتل البشرية المتراصة قد احتشدت فى انتظار وصول « محرر بولونيا » ـ كما أطلق الشعب يومئذ على نابليون ـ فما كادت مركبة الامبراطور تلوح من بعيد لمئات الالوف من الناظرين المنتظرين ، حتى أخذت منهم الحماسة مأخذا عنيفا فاندفعوا نحوها كالغيث الهتون ٠٠

ووقفت المركبة ٠٠ وبينما كان الجنرال « دوروك » ـ قائد جيش الامبراطور ـ يهم بالنزول من جوار مولاه ، اذا به يسمع صوتا يخاطبه بالفرنسية قائلا :

ـ سيدى ! سيدى ! انقذنا بربك من هذا الزحام ، لعلى أتمكن من رؤيته لحظة واحدة ٠٠ !!

التفت الجنرال دوروك الى مصدر الصوت ، فاذا به أمام سيدتين جميلتين تكادان تضيعان فى هذا الخضم الذى يعج بالآلاف من الفلاحين والعمال ٠٠ وكانت احداهما ، وهى التى نادته ، تبدو كأنها طفلة ، شقراء ذات عينين واسعتين زرقاوين ، تشع منهما نظرات السذاجة والوداعة والحياء ٠٠ قصيرة القامة الى حد ما ، الا أنها ذات قد ملفوف أخاذ ٠ أما هندامها فكان بسيطا للغاية ، وقد وضعت على رأسها قبعة أسدل منها على وجهها قناع أسود رقيق ٠٠

استوعب دوروك كل هذه المفاتن فى لحظة قصيرة ٠٠ وبعد أن تفرس فى وجهى المرأتين ، مد يده الى الشقراء منهما

فجذبهـــا برفق الى باب مركبة الامبراطور ، وقال مخاطبا نابليون :

ـ مولاى ! ارمق بنظرة منك هذه الحسناء التى اقتحمت كل هذه الجماهير من أجلك ٠٠!

فرفع نابليون قبعته تحية للمرأة التى كان قد استحوذ عليها شبه ذهول من جلال الموقف ٠٠ وفى غمرة السعادة التى احتوتها قالت للامبراطور :

ـ لتحل بيننا على الرحب والسعة يا مـولاى ! ومـرحى بك ألف مرحى على أرض وطننـــا ٠٠ ان ما تراه من دلائل الترحيب بمقدمك لهو أقل بكثير من أن يعبر عن حقيقةشعورنا نحو شخصك الكريم ، وعن فرحتنا ونحن نراك تمر على أرض هذا البلد الذى ينتظرك دامع العين ، دافق الامل ، لتنهضه من كبوته وتقيله من عثرته ٠٠!

كان نابليون يرمق المرأة وهى تتفوه بهــذه العبارات ، بانتباه شديد٠٠ فلما انتهت من كلامها أخذ حلية على شكل باقة ورد وقدمها اليها وهو يقول :

ـ خذى هذه يا سيدتى واحتفظى بها كعربون وكضمان لصدق نواياى ٠٠ وأرجو أن نتلاقى ثانية فى فرسوفيا حيث اسمع من فمك كلمـــة تقدير لما أكون قد فعلته من أجـل وطنك ٠٠!؟

نشأتها ٠٠ وزواجها

◆ **أخذ** « ذوروك » مكانه بجـانب الامبراطور فى المركبة فانطلقت مبتعدة بهما ٠٠ بينما أطل نابليون من نافذتها الى الوراء وهو يرفع قبعته ملوحا بها فى الفضاء للبولونية الحسناء ٠٠

كانت هذه المرأة تدعى « مارى فالفسكا » ، وكانت من أسرة عريقة ـ وان تكن فقيرة ـ تدعى « أسرة لاشزنسكا » ،

مكونة من ست بنات وولد .. وقد كانت مارى فى سن الطفولة عند ما مات أبوها « لاشزنسكا » .. ولما كان كل هم الام الارملة أن تعنى بقطعة الارض الصغيرة التى خلفها لها زوجها لتعول منها هذه الاسرة الكثيرة العدد ، فقد أدخلت بناتها كلهن فى احدى المدارس الداخلية .. **وحين بلغت مارى الخامسة عشرة من عمرها عادت الى منزل أمها بعد أن حصلت على قدر متوسط من الثقافة ، عادت عذراء طهورة تحمل بين جنبيها عاطفتين : الاولى هى تدينها العميق وحبها لله وايمانها به .. والثانية حبها لوطنها حبا يكاد يبلغ درجة التقديس ..!**

وما كاد يستقر بها المقام فى بيت أمها حتى تقدم الى خطبتها اثنان كان حتما عليها أن تختار أحدهما فى الحال — هكذا قالت لها أمها !!.. كان أحد الخطيبين شابا جميلا مهذبا مثقفا ثريا ومن أسرة طيبة ، فيه كل ما يستهوى الفتاة ، غير أن أباه كان أحد القواد الروس الذين أذاقوا بولونيا ، وطنها الحبيب ، عذاب الهون .. فمن المستحيل اذن أن ترضى به مارى زوجا لها ..!

أما الخطيب الثانى فرجل عجوز اسمه « انستاس كولونا دى فالفيس فالفيسكا » ، جاوز الستين من عمره ، وترمل مرتين !.. وكان جدا — فان أصغر أحفاده سنا كان يكبرمارى بتسع سنوات ! — ولكن ما أهمية ذلك ؟؟ انه كان واسع الثراء، كما كان عميدا لاسرة من أعرق الاسر فى بولونيا ، يتصل نسبها بأسرة « كولونا » المعروفة فى روما ..

فكيف ترفض مدام لاشزنسكا ، أم مارى ، خطيبا لابنتها هذا شأنه .. وتلك مزاياه !؟

لم يكن اذن بد لمارى من قبوله ، عن رضى أو عن اكراه .. فتم الزواج ..!!

أمل ٠٠ يلوح للوطن

◆ **وانقضت** على مارى ثلاثة أعوام ، كانت تقيم أثناءها فى قصر زوجها الشامخ فى (فالفيس)، وحيدة بلا مؤنس أو رفيق ٠٠ ثم حملت ووضعت ولدا ، فبدأ الدفء يسرى فى أوصالها والحياة تطيب لها ٠٠ **لقد عولت على أن يأخذ ابنها قسطه من السعادة التى حرمت هى منها ٠ ولكن هل سيتعين عليه أن يحيا ، كما عاشت هى، فى بلد محتل ممزق مهيض الجناح ٠٠؟!**

كلا! انها تريد لابنها حياة الاحرار، فى بولونيا الحرة!٠٠ وليس غير نابليون الذى هزم النمسا فى موقعة « أوسترلتز » وأقض مضاجع روسيا ، وقوض دعائم ملك بروسيا ٠٠ ليس غير نابليون منقذا لوطنها المعذب التعس ! ٠٠ ومن هنا راحت مارى فالفسكا تتتبع أخباره وانتصاراته ، ويسير خاطرها فى اثر غزواته ، وينبض قلبها بالامل كلما جلجل الفضاء وتصايحت الدنيا بفتوحاته ٠٠ !!

ولما كانت بلدة (فالفيس) منعزلة عن الدنيا ، فقد اقترح عليها زوجها ــ الذى لم يكن ليقل عنها حبا لوطنه وغيرة عليه ــ ان تحضر الى فرسوفيا وتقيم فيها ، ففعلت ٠ وكان حضور الامبراطور متوقعا بين يوم وآخر ، فكان كل مواطن بولونى يستعد للقائه فى شوق ولهفة ، وحماسة ، فعلى ذلك اللقاء كان يتوقف مصير بولونيا ٠٠ !

وودت المرأة الشابة أن تكون الاولى فى هذا المضمار ـ دون تفكير أو تقدير لما عساه أن يحدث أو ينتج من لقائها للامبراطور ! ـ فطلبت الى احدى قريباتها أن تستصحبها . وركبت السيدتان عربة أقلتهما الى برونيا ..

وماكاد موكب الامبراطور يقترب منهما حتى عقد الخوف لسان مارى فكأنها سمرت فى مكانها لا تتحرك ! .. لولا أن دفعتها قريبتها الى الامام وهى تمسك بذراعها كأنها توقظها من سبات عميق ! .. وكان ما أسلفنا من ظفرها بالتحدث الى نابليون ، ومن اهدائه اياها تلك الحلية التى أخذتها مارى ولفتها فى منديل ، فى عناية وحرص شديدين ..

المرأة المجهولة !

◆ **فى** تلك الليلة عادت مارى فالفسكا الى منزلها متأخرة على غير عادتها ! .. وكانت تنوى ابقاء مغامرتها طى الكتمان ، غير أن رفيقتها لم تستطع اخفاء الامر طويلا ، من فرط ما تملكها من الزهو بتلك المغامرة !

وذات صباح فوجئت مدام فالفسكا بالامير «بونياتوسكى» يلتمس تحديد موعد لزيارتها ، فحددته له بعد الظهر .. فلما قدم دعاها الى حفلة راقصة كبيرة اعتزم اقامتها ، وقد ارتسمت على شفتيه وهو يوجه اليها الدعوة .. ابتسامة عريضة ؟!

لكن مدام فالفسكا رفضت الدعوة !.. وعندئذ اضطر الامير الى أن يفصح لها عن خبيئة الامر ، فقال ان الامبراطور قد لمح فى احدى الحفلات أميرة أعجبته تدعى «الاميرة لايوميرسكا» ، فلما قدموها اليه قال الجنرال دوروك أن سر اعجاب الامبراطور بها هو انها تشبه امرأة جميلة مجهولة كان قد رآها فى برونيا .. ! !

من هى تلك المرأة المجهولة ! ! ؟ لقد تكفل « دوروك »

باعطاء أوصافها بدقة وتفصيل . غير أن الامير «بونياتوسكى» لم يستطع رغم ذلك الاهتداء اليها .. الى أن أماط فضول أحد الناس اللثام عن شخصية هذه المرأة المجهولة ، وهاهو ذا يجىء اليها بنفسه !.. ان الامبراطور منذ رآها معجب بها .. وعليه فانها يجب أن تحضر الحفلة الراقصة ! ..

لكنها رفضت ، وأصرت على الرفض !.. فقال لها الامير:

ـ من يدرى ؟ لعل السماء قد اختارتك لتكونى محررة بولونيا .. ؟

ولكنها تشبثت بموقفها ! .. فاذاً بجميع رجالات بولونيا وحكامها يفدون الى قصرها تباعا ، مسترحمين ، ضارعين اليها أن تقبل الدعوة ! .. وكل منهم يكرر على مسمعها نفس العبارة:

ـ من يدرى ؟ لعل السماء قد اختارتك لتكونى محررة بولونيا .. ؟

وفوجئت مدام فالفسكا بزوجها نفسه ـ وقد كان يجهل كل شىء عن مغامرتها فى برونيا ! ـ يلح عليها كى تقبل الدعوة، وقد تملكه الزهو بأن تكون زوجته محل كل هذه العناية والتقدير !!

وقبلت مارى الدعوة ، مغلوبة على أمرها ! .. غير أنها اشترطت لذهابها شرطا لا محيد عنه: هو ألا تقدم الىالامبراطور منفردة ، أو بأى وضع خاص .. ؟!

فى حضرة الامبراطور !

◆ وحل اليوم الموعود.. ووقف زوجها يساعدها على اعداد زينتها ويحثها على الاستعجال ، مخافة أن يصلا بعد مغادرة الامبراطور للحفل ! .. وغالى المخدوع فى مطالبتها بأن تعنى بهندامها لتبدو أنيقة الى أبعد حد !.. غير أنها أصرت مع ذلك على أن تلبس رداءا أبيض ، متوخية البساطة المطلقة فى زيها وزينتها وهندامها جميعا .. !!

وصلت مارى فالفسكا الى القصر وعبرت أبهاءه وسط همس الحاضرين واعجابهم ٠٠ ثم أخذت مكانها بين سيدتين لا تعرفهما ، واذا بالامير جوزيف بونياتوسكى يسرع الى حيث جلست فيقف وراءها ويهمس لها :

ـ لقد « كان » فى انتظارك بصبر نافد ٠٠ فلما وصلت بدا « عليه » السرور ٠٠٠ وظل يردد اسمك حتى حفظه وحفظناه عن ظهر قلب !٠٠ ثم أخذ يحملق فى زوجك بعينين فاحصتين وهو يقول : « ضحية تعسة » !! وقد أمرنى بأن أراقصك الرقصة المقبلة ٠٠ ؟ !

فأجابت مارى فالفسكا عابسة :

ـ انني لا أحب الرقص ٠٠ وليست عندى أية رغبة فى الرقص الليلة !

فأجابها الامير :

ـ انه أمر ! والامبراطور يعلق أهمية كبرى على تنفيذه٠٠ فاذا رفضت فسيعتبر رفضك اهانة موجهة اليه شخصيا ٠٠!! ان نجاح الحفلة متوقف على اجابته الى ما يطلب ٠٠ !

غير انها أصرت على الرفض ! ٠٠ فلم يجد الامير بونياتوسكى بدا من اللجوء الى « دوروك » والافضاء اليه بما حدث ، فنقل دوروك بدوره ما جرى الى الامبراطور ٠٠ !

وأحاط الضباط بالمرأة الجميلة الشابة ، كل يبدى لها اعجابه ٠٠ وكان أحدهم « جريئا » فى اعجابه فأمر نابليون بطرد هذا المنافس ، فطرد فى الحال ! ٠٠ وتوقف الرقص ، وشلت الحفلة ٠٠٠ واذا بنابليون العظيم يذرع أبهاء القصر وقد ارتبكت أعصابه واختل ميزانه ، وظهر ذلك من بعض العبارات التى كان يوجهها الى الحاضرين ، والدالة على ذهن مضطرب وبال مشغول ٠٠ فقد سأل مثلا احدى « الانسات » كم

عندها من الاولاد ٠٠؟؟ كما سأل «عانسا» قبيحة الخلقة اذا كان «زوجها» يغار عليها ؟٠٠٠ وتقدم الى امرأة بدينة ضخمة الجثة يسألها اذا كانت تحب الرقص ٠٠ ؟!

لقد كان شارد العقل مشتت الذهن ، لا يرى شيئا ٠٠ ولا يسمع شيئا ٠٠ ولا يعى شيئا !٠٠ كل حواسه كانت متجهة ومركزة فى امرأة واحدة ، هى التى استحوذت على عقله ولبه جميعا !!

وأخيرا تقدم نابليون الى مارى ٠٠ فغمزتها جاراتها لكى تقف ٠٠ فوقفت ، وقد بان عليها الارتباك ٠٠ واذ ذاك ابتدرها بقوله : « ان الابيض لا ينسجم مع الابيض ياسيدتى ! » ٠٠ (مشيرا بذلك الى الرداء الابيض الذى كانت تلبسه !) ٠٠ ثم استطرد هامسا : « ان لى حقا فى ترحيب من نوع آخر غير هذا ٠٠!! »

فلم تجب٠٠أما هو فدقق النظر اليها واستأنف المسير٠٠ ثم غادر الحفل بعد دقائق معدودات ٠٠ !!

◆ **وما** كاد ينفرط عقد السهرة حتى أخذ المدعوون يتذاكرون ما فاه به نابليون وما وجهه من عبارات الى هذه أو تلك ، وعلى الاخص ما قاله « لها هى » بالذات ٠٠ ماذا قال « لها » بصوت مرتفع ٠٠ وماذا قال «لها» بصوت خفيض ؟

الزوج ٠٠ آخر من يعلم !

وفيما كانت عائدة مع زوجها فى العربة أخذ الزوج يمطرها بوابل من الاسئلة٠٠ثم أخبرها بأنه قد قبل دعوة أخرى للعشاء سيحضرها الامبراطور ٠٠ ونصحها بأن تعنى بملابسها وزينتها فى السهرة القادمة أكثر من عنايتها بهما فى هذه السهرة ! ٠٠ ثم تركها فجأة عندما وصلت بهما العربة الى باب المنزل وهى تهم بالاعتراف له بمغامرتها فى برونيا ، وما نتج عنها ، وما يساورها من قلق بسبب تلك المغامرة !

وما كادت تدلف الى مخدعها حتى فوجئت بخادمتها تحمل اليها خطابا قرأت فيه ما يأتى :

« اننى لم أر أحدا سواك ٠٠ ولم أعجب بأحد غيرك ٠٠ ولا »
« اشتقت الا اليك ٠٠ ان جوابا صريحا منك كفيل بأن يهدىء »
« القلق والشوق اللذين يستحوذان على ٠٠! »

« ن »

ألقت مارى بالخطاب من يدها فى اشمئزاز ، وقد ثارت ثائرتها من اللهجة التى كتب بها ! ٠٠ بينما كان الرسول الذى أحضر الرسالة ما يزال واقفا فى الشارع ينتظر ـ ولم يكن هذا الرسول سوى الامير جوزيف بونياتوسكى ! ـ فقالت مارى لخادمتها :

ـ قولى له ان ليس عندى رد على هذه الرسالة ٠٠ !!

فلما أبلغت الخادمة هذا الرد للامير لم يتقبل الهزيمة فى سهولة ، بل تبع الخادمة وفى جرأة عجيبة اقتحم المنزل متجها الى مخدع مارى الخاص ! ٠٠ فسارعت مارى الى اغلاق الباب ، ومن ورائه أعلنت الرجل الجرىء المتطفل بأنها كما قررت فى السهرة الماضية أنها لن ترقص ونفذت قرارها فلم ترقص ، كذلك هى تقرر الآن انها لن ترد على هذه الرسالة ٠٠ ولن ترد!!

أخذ الامير يستعطف ، ثم ترك الاستعطاف الى التهديد٠٠ كل ذلك أمام باب الغرفة المغلق !٠٠ وظل هكذا نصف ساعة٠٠ وأخيرا ، وخوفا من الفضيحة ، انسحب وغادر المنزل وهو يستشيط غضبا ٠٠ !!

وفى صبيحة اليوم التالى ما كادت مدام فالفسكا تستيقظ من نومها حتى ألقت اليها خادمتها بخطاب آخر ٠٠ غير انها أبت أن تفض غلافه وضمته الى الخطاب الاول آمرة بأن يعاد الخطابان معا الى الرسول !

وفى اليوم الذى يليه كان بيتها يعج بالزوار من علية القوم ، وعلى رأسهم الجنرال « دوروك » !.. فرفضت أن تقابل أحدا وأغلقت باب غرفتها ثم تمددت على مقعد طويل ...

لكن هذا التصرف أثار ثائرة زوجها .. الذى صمم بدوره على أن تستقبل زوجته الزوار الذين قدموا لزيارتها وتحيتها ، وعلى رأسهم الامير بونياتوسكى .. كما صمم على أن تقبل الدعوة التى وجهت اليها .. !

تضحية وطنية !

وكان بين الزائرين رجل من رجالات بولونيا البارزين، كان على رأس حكومتها ردحاً من الزمن ، فقال لها وكأنه أدرك مايجرى فى الخفاء :

ـ كل شىء يجب أن يبذل ياسيدتى لاجل خلاص الوطن!.. انك لا تستطيعين التخلف عن هذه الحفلة دون أن تكونى عاقة نحو وطنك !

أصبح حتما على مارى والحالة هذه أن تنهض لتأخذ أهبتها الى السهرة المرموقة .. فاقتيدت الى المدعوة « مدام فوبان » ـ عشيقة الامير بونياتوسكى ، وهى المرأة ذات الناب الازرق والاختبارات الطويلة فى هذا المضمار ! ـ كى تتلقى منها بعض التوجيهات والنصائح الخاصة بما يجب أن يكون عليه هندامها، وما يجب أن تسير عليه أثناء السهرة حتى لا تشذ فى تصرفاتها عن تقاليد البلاط .. !!

واستقبلتها مدام « فوبان » هذه بترحيب كبير، وأناطت باحدى الخادمات اعداد زينتها وتجميل هندامها .. وبينما هما كذلك اذا بخطاب ثالث يأتيها ، قرأت فيه ما يلى :

« ان الاشياء التافهة قد تنتج نتائج خطيرة بعيدة المدى فى »
« غالب الاحيان .. ولقد كان للنساء فى كل العصور تأثير »

« كبير فى توجيه سياسة العالم ٠٠ وان حـوادث التاريخ »
« القديم، كحوادث التاريخ الحديث، تؤيدلك هذهالحقيقة!٠٠ »
« وما دامت العواطف هى التى تتحكم فى الرجال فستظل »
« النساء فى السياسة قوة وخطرا ليس الى تجـاهلهما مـن »
« سبيل ! ٠٠ ان الرجال يبذلون أرواحهم فداء للوطن، وعلى »
« النساء أن يساهمن فى هذا الواجب المقدس !٠٠ وهن لا »
« يستطعن المساهمة فيه بالتمنع والصدود ـ فان هذا ضد »
« طبيعتهن ! ـ وانما عليكن يامعشر بنات حـواء أن تتحملن »
« تضحيات كثيرة بشجاعة ٠٠ ولو ان تضحياتكن هذه كثيرا »
« ما تكون مبعث ألم لنا نحن الرجال ! ٠٠ هـل تعتـقدين »
« يا سيدتى أن « استر » سلمت نفسها الى الملك «أحشويرش» »
« عن حب ؟ انها كانت تفزع من رؤيته وترتعد أمام نظراته٠٠ »
« غير انها ضحت بنفسها من أجل وطنها ! ٠٠ وكان لها فخر »
«انقاذ هذا الوطن فى النهاية ! ٠٠ فهل ستصنعين ما صنعت »
« «استر» ؟ انك ان فعلت فستنالين أنت المجد ٠٠ وينال أبناء »
« وطنك العزة والسعادة والحرية ! »

وكان هذا الخطاب يحمل توقيعات عدد كبير من ساسة بولونيا ووزرائها !!

وهكذا وجدت مارى نفسها وحيدةمحاطة بمؤامرة محبوكة الاطراف، فليس لها صديق تبثه شكواها، ولازوج شهم فطن تعتمد عليه ! ٠٠ ولا ملاذ تلوذ به وتعتصم ٠٠ ان عليها أن تدفع هذه الضريبة الفادحة من دمها وذات روحها وجسدها ٠٠ من أجل بولونيا ٠٠ !

وبينما هى مع الخادمة اذا برسول يحمل اليها رسالة نابليون الثانية التى كان قد بعث بها اليها فأعادتها دون أن تفضها !٠٠ ففضت الخادمة الغلاف فى هذه المرة ، وأخذت تقرأ على سيدتها :

« أتراني لا أعجبك ياسيدتي ؟ ؟ لقد كان لى الحق على الاقل »
« فى أن آمل غير ذلك ... فهل أنا مخطىء ؟ ان عـواطفك »
« تزداد بطئا كلما ازدادت عواطفى سرعة .. انك تحرمينني »
« لذة الراحة ... أفلا تجودين بشىء من السـعادة على قلب »
« معذب يعبدك ؟ وهل من العسير على أن أتلقى ردا منك ؟ »
« تذكرى أنك مدينة لى بردين حتى الآن ! »

«ن»

وما كادت الخادمة تنتهى من تلاوة الخطاب حتى دخل الزوج الى الغرفة ، وكانت تبدو عليه امارات الغبطة والزهـو بالنجاح الباهر الذى أحرزته زوجته ! .. والذى كان يعـزو الفضل فيه الى نفسه ، دون أن يعى شيئا مما يدور حوله ! .. وطفق يكرر رجاءه والحاحه على زوجته فى المبادرة بالذهاب الى السهرة التى سيشرفها الامبراطور بحضوره ..!

مأزق تعس !

وأحست المسكينة ان الخناق يضيق عليها رويدا رويدا وأنه ليس الى الهرب من سبيل .. ان أبناء وطنـها جميعـا يستعطفونها أن تذهب ... فلتذهب اذن !!

وحين حملتها مركبتها أخيرا منطلقة بها الى تلك الحفلة أخذت تلوم نفسها على شدة خوفها من نابليون .. لماذا تخشاه، ما دامت لا تحبه ... ؟؟

ووصلت الى القصر المضىء المتلألىء بالثريات والانوار .. ووصل الامبراطور فى أثرها ، وأخذ يجوس خلال الابهاء . كان يبدو أحسن حالا وأكثر انشراحا منه فى السهرة السابقة !.. فلما وصل الى حيث كانت مارى فالفسكا ابتدرها بقوله :

ـ لقد ظننت أن سيدتى كانت متعبة فى تلك الليلة .. فلعلها شفيت الآن تماما مما كان قد ألم بها .. ؟ !

والحق ان هذه التحية اللبقة قد راقت مارى فالفسكا!٠٠ فما ان انتظم المدعوون حول المائدة حتى وجدت مارى نفسها بجوار الجنرال « دوروك » وفى مواجهة نابليون ٠٠ !

وأخذ الامبراطور ـ بلباقة لا تخلو من الخبث ـ يوجه الى أحد المدعوين بعض الاسئلة عن تاريخ بولونيا!٠٠وكان يبدو كمن يصغى باهتمام الى كل جواب ٠٠ غير أن عينيه فى الحقيقة كانتا مصوبتين أثناء الاصغاء الى مدام فالفسكا ، لا تتحولان عن التفرس فيها لحظة واحدة ! ٠٠ وفى تلك الاثناء نظر الامبراطور الى دوروك ـ القائد العام ـ نظرة المستفسر عن شىء ، بينما وضع يده على الناحية اليسرى من سترته ٠٠ فارتبك دوروك ولم يفهم بادىء الامر ما أراده الامبراطور ٠٠ وأخيرا أدرك أنه يريده أن يسأل مدام فالفسكا عما عساها تكون قد صنعت بتلك الحلية التى على صورة باقة من الورد ، التى كان قد أهداها اياها فى برونيا فى ذلك اليوم المشهود٠٠!

فلما سألها دوروك أجابته بأنها حريصة على أن تحتفظ بها لابنها كتذكار ثمين ٠٠ فقال دوروك :

ـ اذن ٠٠ فلتسمحى ياسيدتى بأن يقدم اليك ما هو أليق بك من تلك الحلية الصغيرة !

فردت مارى بصوت مسموع لا تخلو نبراته من الانفعال :

ـ اننى لا أحب الا الورود !

ارتبك دوروك قليلا ، ثم تمالك نفسه فأجابها :

ـ ان الورود التى سيهديك اياها فى هذه المرة ستكون مقتطفة من حدائق بولونيا الغناء ٠٠ !

وأخذت أبهاء القصر تموج بالحاضرين٠ واذا بنابليون يدنو من مارى ويصوب اليها تلك النظرات النفاذة الاخاذة التى لا تقاوم ، ثم يمسك بيدها ويضغط عليها وهو يهمس لها :

ـ لا ! لا ! أمام هاتين العينين الساحرتين وأمام هذه

الوداعة الملائكية لا يستطيع الانسان الا أن ينحنى اجلالا ... فليس فى مقدور رجل أن يقسو على هذا الجمال .. انما المرأة الفاتنة هى التى تقسو فى أغلب الاحيان .. !

◆ ثم غادر الامبراطور المكان ، وتبعه المدعوون .. فوجدت مدام فالفسكا نفسها تقاد الى المرأة ذات الناب الازرق « مدام فوبان » .. فما رأتها حتى ابتدرتها بقولها :

ـ انه لم ير أحدا سواك ! .. لقد كانت نظراته اليك كسهام من نار ..

واذا بالجنرال دوروك يحضر ، ويجلس على مقعد بجوارها .. ثم يسلمها خطابا مقفلا . وقبل أن تفض مارى غلافه إبتدرها القائد بقوله :

ـ هل تستطيعين ياسيدتى رفض طلب من لم يرفض أحد له طلبا قط ؟ .. ان مجد هذا الرجل محاط باطار من الحزن. ويتوقف عليك وحدك أن تبدلى حزنه بلحظات من الهناءة والسعادة .. !!

لم تجبه مدام فالفسكا بكلمة .. انها وحدها المخلوق الذى يمكنه أن يحدث نابليون عن « بولونيا » .. وانها وحدها التى يمكنها أن تحفزه على العمل من أجل « بولونيا » ، واعادة مجدها واستقلالها .. لكنها مع ذلك تحس بفداحة الثمن الذى يجب أن تدفعه .. !

وغطت وجهها بيديها .. وانفجرت تبكى بكاءا مرا .. !

ان الامبراطور يطلب منها موعدا « خاصا » فى هذه المرة ! .. وكأنما شعرت الماكرة مدام فوبان باشمئزاز مارى من هذا الطلب ، فراحت ترميها بعدم الوطنية .. وعدم الاستعداد للتضحية فى سبيل بلدها وشعبها !

ولما انسحب دوروك ، فضت مدام فوبان غلاف الخطاب الذى جاء به .. وأخذت تتلوه بصوت مرتفع :

« **هناك لحظات يرزح القلب أثناءها تحت أحمال ثقال . وهذا** »
« **ما ينتابنى الآن .. فكيف السبيل الى ارضاء قلب أغرم بك** »
« **الى حد الركوع عند موطىء قدميك ؟ .. اننى أنوء بآلام** »
« **عنيفة وقيود مرهقة تكاد تشل نبضات قلبى .. آه ! لو** »
« **أنصت اليه ؟! انك أنت وحدك التى تستطيعين رفع الحواجز** »
« **التى تفصلنا.. ان صديقى دوروك سيسهل عليك المهمة..!** »
« **تعالى ! تعالى ! .. ان جميع رغباتك ستجاب ، وسيصبح** »
« **وطنك أكثر اقترابا الى قلبى اذا أنت أشفقت على هذا القلب** »
« **المعذب المسكين ..!!** »

« **ن** »

◆ **وهكذا** وضع القدر مصير وطنها بين يديها ! .. ولم تعد هذه أراجيف يرجف بها الآخرون ، وانما أصبحت حقيقة يقررها لها نابليون نفسُه.. فعليها تتوقف الآن اقالة بولونيا من عثرتها.. لقد أصبح عرضها هو الثمن الذى يجب أن تدفعه..ولكن ماقيمة هذا بجانب مجد أمة ومستقبل شعب مهيض الجناح .. ؟؟

لقد تركوها وحدها لتقرر فى هدوء مصيرها ومصير بولونيا .. غير انهم اتخذوا الحيطة لهروبها فأغلقوا عليها الباب !.. ولكن ، لماذا العناد ؟ أليس نابليون رجلا ؟ أليس نابليون عاشقا ؟ فلماذا لا تذهب اليه عن طواعية وتقول له : «اصنع بى ما شئت !» ، مادام فى هذا اعادة بناء مجد بولونيا ؟؟ انها فى خلوتها به ستتمكن من أن تسمعه أنات الشعب البولونى المحتل الممزق!.. انها لاتحبه، غير أنها تعجب به اعجابا كله حماسة واجلال وعرفان بالجميل الذى سيطوق به عنقها أو بالحرى عنق الشعب البولونى كله ..!!

لقد اتخذت كل المعدات لتبقى فى قصر مدام فوبان طيلة النهار . فقد كان مقررا أن يجىء فى المساء من يسوقها الى حيث كان قد تحدد مصيرها المحتوم .. !

طريق الدنس !

وظلت هكذا حبيسة فى الغرفة المقفلة حتى الساعة العاشرة مساء .. واذا بقرع خفيف على الباب ، وسيدة تدخل وتأخذ فى اصلاح زينتها على عجل ، وتلبسها معطفا ... ثم تقتادها الى مركبة كانت تنتظرها فى الشارع .. وهناك أحست بيد تدفعها برفق الى الداخل ..!

وفى المركبة وجدت مدام فالفسكا رجلا يلبس معطفا طويلا ، أخذ مكانه بجوارها ثم أغلق الباب .. ولم ينبس أحدهما ببنت شفة طوال الطريق .. حتى وقفت المركبة أمام باب سرى من أبواب القصر الكبير ، فنزلت مدام فالفسكا . واذا بالباب يفتح من الداخل فيفسح أمامها الطريق الى داخل القصر .. حيث لم تلبث أن أخذت مكانها على مقعد كبير وثير فى احدى حجراته ..

.. لتجد نفسها بعد لحظات فى حضرة الامبراطور نابليون بونابرت !.. أنها لم تفطن لدخوله لاول وهلة ، فقد كانت غارقة فى البكاء .. أما هو فقد جثا أمامها على ركبتيه وأخذ يهدىء من روعها ، ويخاطبها مترفقا .. وفجأة أفلتت منه هاتان الكلمتان :

ـ « زوجك العجوز !! »

لكن هذا القول كان أشبه بنصل مسموم استقر فى قلب مدام فالفسكا .. فوثبت من مقعدها كمن تحاول الهرب ، وصدرها ينشج ببكاء عنيف .. **لقد صورت لها هاتان الكلمتان كل ما فى العمل الذى هى مقدمة عليه من حقارة وضعة ! .. أما هو فقد عرته الدهشة مما يرى !.. انها أول مرة يرى فيها الامبراطور نفسه فى مثل هذا الموقف الحرج ... ترى هل هذه المرأة من فريق النساء المتمرسات بألوان الدلال .. أم هى ساذجة سذاجة ليس لها مثيل ؟؟ وهل ما يراه الآن أمامه هو**

دور يمثل لاستثارة غريزته والهاب رغبته ؟٠٠ ولكنه في الواقع قد سمع صرخة صادقة كاد ينشق لها صدر هذه المرأة نصفين!٠٠ صرخة من صدر ذبيح ـ لا زيف فيها ٠٠ ولا تقدر على تمثيلها امرأة شابة في الثامنة عشرة ٠٠ !

التصقت مارى بالباب من فرط ذعرها٠٠فأعادها نابليون الى مقعدها وأخذ يعالجها ببعض كلمات معسولة لينة ، ليعيد السكينة الى قلبها ٠ ثم راح يوجه اليها بعض الاسئلة عساها تفيق من الغاشية التى غشيتها ٠٠ غير انه لم يظفر منها بغير أجوبة مهلهلة ليس فيها غناء !

أتراها تزوجت من هذا الشيخ المسن الهرم بمحض اختيارها ٠٠ عن حب ، أو ربما عن طمع فى الثروة واللقب؟؟ من ذا الذى قرن هذا الشباب المتدفق بالحيوية ، بتلك الشيخوخة المحطمة الزاحفة الى القبر بخطى واسعات ٠٠٠ ؟؟

وقال نابليون يسألها :

ـ ألا تشعرين بندم على هذا الزواج ؟

فأجابته :

ـ ان ما يجمعه الله لا يفرقه انسان ٠٠ !

فاستلقى نابليون على ظهره من الضحك٠٠أما هى فأوغلت فى البكاء ! ٠٠ وبقى الاثنان على هذه الحال حتى دقت الساعة الثانية صباحا ٠٠ واذا بقرع خفيف على الباب صاح نابليون عند سماعه : « **ماذا ؟ أهكذا حلت ساعة الفراق سريعا ؟٠٠ أيتها الحمامة الباكية : جففى دموعك واذهبى فاستريحى ٠٠ لا تخافى النسر ٠ انه لا يملك بازائك الا قوة الحب الملتهب ٠٠ ولكنه حب يريده أن يستحوذ على قلبك قبل أن يستحوذ على أى شىء آخر ٠٠ انك ستحبينه آخر الامر ، وسيكون هذا القلب لك كله ٠٠ أتسمعين ٠٠ ؟** »

ولما انتهى نابليون من قوله أخذ يساعدها على ارتداء

معطفها ثم قادها الى باب الحجرة ، وهناك وضع يده على المفتاح وتوقف لحظة قبل أن يديره ·· ثم قال لها بلهجة لا تخلو من التهديد : انه يريد منها قبل أن تخرج أن تقسم له بأنها ستعود اليه فى الغد !؟

فأقسمت ·· !!

◆ **وعادت** أدراجها الى منزلها وقد استردت شيئا من هدوئها·· وخيل الى المسكينة ان حلمها قد تحقق ، فقد كان نابليون معها كيسنا ورقيقا· لم يحاول أن يأتى أى عمل فيه عنف أو قسوة·· ولقد تركها الليلة دون أن يمسسها ، فلماذا لا يكون هـذا شأنه أيضا غدا ؟!

وفى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى وجدت مدام فالفسكا عند رأسها « كاتمة السر » مدام فوبان ، وكانت تحمل بين يديها حزمة أخذت تفضها بعد أن أغلقت باب الحجـرة بحذر وعناية ! ·· كانت الحزمة تحتوى على ورود جميلة وهدايا ثمينة ، وخطاب مقفل ·· ثم حزمة أخرى صغيرة الحجم تحتوى على جواهر غالية وعقد ثمين من الماس ! ·· فما كاد بصر مارى يقع على الجواهر حتى اختطفت العقد الماسى من يد مدام فوبان وألقت به فى الجانب الآخر من الحجرة فى غضب شديد ··

ماذا يعنون بهذا ؟ أهى سلعة تباع ؟ أم تراهم يظنونها من الهوان والرخص بحيث تغريها هذه الاشياء ؟؟

غير ان مدام فوبان لم تأبه لثورتها ، وانما راحت ــ فى ثبات عجيب ــ تفض غلاف الخطاب لتقرأ عليها ما فيه :

« مارى ! ياحبيبتى ! ان أول خاطر يدور فى رأسى انما محوره »
« أنت ·· وأول رغبة تستبد بى هى أن ألقاك ثانية !·· والا »
« فان النسر سيحلق طائرا اليك ! ·· سأراك وقت العشاء ، »
« فلتتفضلى بقبول هذا التذكار ولتجعلى منه رباطا يربطنا ويقيم »
« بيننا علاقة خاصة بنا لا يعرفها انسان سوانا!·· ذلك لاننى »

« وسط جمهرة الناس الذين يحيطون بنا لا أستطيع أن »
« أتفاهم معك٠٠فاذا تعرضنا لانظار الناس وأبصرت بى ويدى »
« على قلبى فاعلمى بأن قلبى متجه اليك ٠٠ ولكى تجيبينى »
« احتفظى أنت أيضا بيدك على هذه الحليــة ! ٠٠ أجيبينى »
« ياصغيرتى ٠٠ ولا تدعى يدك تترك هذه الحلية أبدا ٠٠ ! »
« ن »

◆ غير أن هذا الخطاب لم ينهنه من عزمها ٠٠ انها ترفض الهدية بل ترفض حتى قبول باقة الورد ! ٠٠ أما هـــربها من قبول الدعوة الى العشاء فهذا عبث لا طائل تحته ولا جدوى فيه٠٠ ان جميع الانظار متجهة اليها وجميع الآمال مركزة فيها ٠ حتى زوجها الساذج المسكين ما يزال أعمى أصم لا يــرى ولا يسمع ٠٠ فهو أكثر الناس حماسة لقبولها هذه الدعوة أيضا وذهابها الى ٠٠ وكر النسر !!

وذهبت ٠٠ !

ذهبت لتتناول العشاء مع الامبراطور ٠٠ وهناك خيل اليها ان جميع الحاضرين يعرفون سرها ، فالكل يرمقونهـــا بنظراتهم ، ويهرعون الى تحيتها وتقديم أنفسهم اليها ٠٠ !

وكان الامبراطور قد وصل٠٠ وكان يبدو مقطب الجبين ، وبدأ يرمقها بتلك النظرات الاخاذة التى يتطاير منها الشرر ٠٠ ثم تقدم نحوها فجأة فخشيت مارى من اندلاع نار غضبه أمام هذا الجمع الحاشد ، وتذكرت ما جاء بخطابه الاخير اليهـــا فسارعت بوضع يدها على الحلية التى أهداها اياها فى برونيا٠٠! واذ ذاك انفرجت أسارير نابليون فى الحال ٠٠ وانطفأ من عينيه ذلك اللهب المخيف ٠ واذا بيده تجيب على حـــركتها بحـــركة مماثلة ! ٠٠ وقبل أن يدلف المدعوون الى قاعة الطعـــام نادى « دوروك » وأسر اليه ببضع كلمات !!

ولما أخذ المدعوون أماكنهم حول المائدة رأت مارى نفسها

ـ كالمرة السابقة ـ جالسة الى جانب القائد العام ، الذى لاحظ أنها لا تلبس العقد الماسى الذى كان الامبراطور قد أهداها اياه فى ذلك الصباح ٠٠ فأخذ يوبخها على ذلك توبيخا شديدا !٠٠ غير أنها أجابته بشدة ، قائلة **انها لن تقبل أية هدايا من هذا الطراز ، وأنها تخجل من أن تظهر فى الحفلات العامة وهى مرصعة بالجواهر ٠٠ وان الشىء الوحيد الذى يأسر قلبها ويحوز اعجابها وتقديرها ويدفعها الى الولاء والاخلاص هو تحقيق ذلك الامل الذى طالما جاش بصدرها وصدور أبناء بولونيا جميعا ٠٠ أما الجواهر وما شابهها فهى زاهدة فيها وفى كنوز الارض كلها !** ٠٠٠ فلما فرغت من «حملتها» أجابها دوروك : « وهذا الامل العزيز عليك ٠٠ ألم يعدك الامبراطور بتحقيقه؟ »

ثم راح يسرد على مسامعها سلسلة من الاعمال التى قام بها نابليون كمقدمة لتحقيق آمال بولونيا ٠٠ أما عن حبه لها فان عينيه أصبحتا لا تريان شيئا سواها !٠٠ وأما ما همس به الامبراطور فى أذنه منذ لحظة فلم يكن الا رغبته فى أن يذكرها بوعدها له فى الليلة الفائتة بأن تأتى الى لقائه الليلة ٠٠!

لم يكن فى مقدور مارى الفكاك مما قدر لها ، فكل شىء قد أعد لتحقيق هذا المقدور ! ٠٠ وأقتيدت مدام فالفسكا الى عاشقها كالشاة التى تساق الى الذبح ! ٠٠ وهاهى فى حضرة نابليون مرة أخرى ، وهو يقول لها :

هذه أنت أخيرا ؟! لقد يئست من لقائك ثانية ٠٠

ثم أخذ يساعدهم على خلع معطفها وقبعتها ، ويجلسها على مقعد وثير ٠٠ فلما انتهى من ذلك وقف أمامها ، وبلهجة صارمة أخذ يستجوبها عن السبب الذى حملها على المجىء الى لقائه فى برونيا ؟ ٠٠ ولماذا تعمدت ايقاعه فى شرك غرام لا تقاسمه اياه ؟ ٠٠ ولماذا أمعنت فى رفض هداياه ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

وكانت يده وهو يخاطبها لا تفارق قلبه ، بينما ظلت يدها هى بلا حراك ٠٠ !

لكن الامبراطور الجبار لم يستطع أن يحظى منها بجواب ينقع غلته ، فثارت ثائرته وصاح بها محتدا : «حقا انك لبولونية أصيلة ؟ ! انك تؤيدين عقيدتى فيكم يامعشر البولونيين ! » ٠٠ فأجابته مستعطفة ، وقد لمست لهجته وترها الحساس : «مولاى عفوا ! ٠٠ وما هو هذا الاعتقاد ؟ ! كاشفنى به يا مولاى ! ! » ٠٠ واذا بنابليون يكاشفها برأيه فى البولونيين : وكيف أنهم شعب عاطفى أرعن ، يتصرف وفق الهوى لا وفق تفكير منظم وأسلوب محكم٠٠ وهاهى مارى نفسها مثل حى يؤيد كل ما يقول ! ٠٠ ألم تسارع الى لقائه فى برونيا كالمجنونة ؟ ٠٠ ألم تشق الكتل البشرية لتراه ؟ فماذا صنعت عندما رأته ؟ تركته يولع بها ويهيم بحبها ٠٠ وهى فى كل مرة تلاقيه تحاول أن تولى عنه الادبار ، وتلوذ منه بالفرار ! ٠٠ ثم استشاط نابليون غضبا ، وصاح يقول :

ـ اننى أريد ٠٠٠ هل تسمعين ما أقـــول ؟ اننى أريد اكراهك على حبى ٠٠ ولسوف أبعث باسم وطنك فى الاحياء٠٠ ولئن كانت لم تزل لبولونيا جذور غائصة فى الارض لم تجتث بعد فان ذلك كان بفضلى أنا !٠٠ واننى معول على عمل الكثير من أجلها ٠٠ ولكن تدبرى الامر ٠٠ فكما اننى أستطيع أن أحطم هذه الساعة الصغيرة التى فى يدى وأدقها دقا ، وأذرو قطعها المتناثرة فى مهب الرياح (وهنا أخذ يدق الساعة حتى حطمها فعلا !) فاننى أستطيع أن أفنى شعب بولونيا بمثـــل هـــذه السهولة ! ٠٠ انك تدفعيننى بتيهك وصدك ورفضك حبى الى كل عمل جنونى ٠٠ !

وأمام هذا العنف وهذا التهديد ، وهذه الساعة المحطمة ، تملك مارى فزع ورعب لم تتمالك معهما قواها ٠٠ فسقطت على الارض مغشيا عليها ! ٠٠ فلما أفاقت من غشيتها وجدته الى

جوارها ، وقد أخذ يمسح دموعها التى كانت تتساقط قطرة قطرة من عينيها المغمضتين ..

... ...

.. ثم جرى فيها حكم القدر الذى لم يكن عنه محيد ! .. وأصبح مجيئها اليه كل ليلة عادة تعودتها ، وضريبة فرضت عليها على وعد بأن تقبض فى القريب ثمنها الموعود : حرية شعبها المرموقة ! .. فتلك هى الكفارة الوحيدة التى تغسلها من خطيئتها وتطهرها من أدران الوزر الذى ارتكبته : أن تنهض بولونيا ، ويلتئم شملها، وتعودشعباموحدا وحكومةمستقلة..!!

آلام المرأة الشريفة !

وكان كل من تراه وتفاتحه فى هذا الذى يشغل بالها ويقض مضجعها ، لا تسمع منه غير وعود وأمان يرجأ دائما تحقيقها للمستقبل القريب .. ولكن ، ترى متى يحين هذا المستقبل القريب؟.. انها لا تدرى ! ان آلامها لاتحد . ولو شاءت أن تكون السيدة الاولى فى فرسوفيا لما نازعها فى ذلك أحد .. غير أن ما كانت ترزح تحته من آلام بسبب علاقتها بنابليون جعلها تؤثر الانزواء والاختفاء عن الانظار ! .. انها فى نظر المجتمع لم تكن زوجة الامبراطور التى تشاركه أبهة الحكم وعظمة السلطان، ولكنها كانت تعد نفسها سفيرة بلدها لديه.. بل انها كانت « زوجته البولونية » التى كان مجرد وجودها الصامت بقربه حافزا له على تنفيذ ما وعدها به ، ومذكرا اياه بدينه الذى لم يف به بعد .. !!

وذات يوم قال لها :

ـ كونى واثقة من أن وعدى لك سيتم ! لقد أكرهت روسيا على اخلاء جزء من المنطقة التى تحتلها من بولونيا . وان الزمن كفيل بانجاز الباقى ، فليس هذا هو الوقت المناسب لعمل كل

شيء ٠٠ وعليك أن تتذرعي بالصبر ، فالسياسة حبل اذا شد بقوة انقطع ! ٠٠ وان فترة الانتظار هذه لنافعة فى تكوين عدد من رجال السياسة فى بولونيا وتدريبهم ، اذ أننى أرى أن الاكفاء منهم قليلون ٠٠ ان بلادك غنية برجالها الوطنيين الذين يلتهبون غيرة وحماسة ، وان الشرف والبسالة ليملآن صدور بنى وطنك ٠٠ اننى واثق من ذلك ٠٠ غير أن هذا لا يكفى ، اذ يلزم أن تتوافر معهما قوة مجمعة ضخمة من الساسة الناضجين المخلصين ! »

ومن العجيب أنه فى كل مرة كان يلقاها فيها كأن يكثر من الحديث معها عن بولونيا وما ينبغى عمله من أجلها ! ٠٠ ولم يكن نابليون ليكتفى برؤية عشيقته كل ليلة على انفراد ، بل كان يحتم عليها أن تظهر معه فى المناسبات الرسمية وفى جميع الحفلات ٠٠ وأصبحت مارى فالفسكا خبيرة بجميع نزواته ونزعاته ، ملمة بكل ما يعنيه بحركاته وسكناته، مدركة مايرمى اليه بايماءاته واشاراته ٠٠٠ حتى لقد بزت الجنرال دوروك فى هذا المضمار ! ٠٠ وذات يوم قال لها نابليون :

ـ لا تأخذنك الدهشة اذا أبصرت بى أتحدث الى القواد ورجال الدولة بشىء من الشدة، اذ على أن أقوم بالدور الذى يحتمه على منصبى! ٠٠ لقد كنت فيما مضى حلقة صغيرة فى سلسلة، فأصبحت الآن سلسلة كثيرة الحلقات ٠٠ ان جميع الانظار مصوبة الى من قريب أو بعيد ، وكل هذا قد يدفعني الى

أن أقوم بأدوار قد لا تتفق مع طبيعتى ولكن يتعين على القيام بها ، حتى يقدر كل من حولى واجبهم ويلزم كل فرد حده فلا يتعداه ‥ والا ضاعت هيبة المنصب الذى أتولاه !

امرأة مثالية ‥

◆ **ولما** نقل نابليون مقر قيادته الى « فنكنشتين » ، تبعته مارى الى ذلك المكان المقفر الموحش الذى أعاد اليها ذكرى حياتها السابقة مع زوجها العجوز فى قصر «فالفيس» ‥ فقد كانت حياتها فى « فنكنشتين » حياة عزلة وصمت : فلا حفلات ولا ولائم ولا سهرات ‥ غير أنها برغم كل ما كان يعتريها هناك من السأم والملل والضجر ، فانها كانت تفضل هذه الحياة على حياة القصور الصاخبة البراقة ، المرهقة للاعصاب ‥

ووجد نابليون فى « زوجته البولونية » المرأة التى تمنى لو كانت زوجته «جوزفين» على غرارها: المرأة الوديعة، اليقظة، الخجولة ، التى ليس لها ارادة أو رغبات ‥ المرأة التى تكرس نفسها لرجلها والتى تقنع منه بلفتة عابرة أو ابتسامة رضا !‥ المرأة ذات النفس السامية والمشاعر النبيلة والقلب الكبير ‥ التى لا تطلب لذاتها شيئا وانما تتفانى فى سبيل اسعاد الآخرين !!

ولقد حاولت مدام فالفسكا أن تتغلغل فى تضاعيف قلبه وتحتل كل ثنية من ثنايا روحه ، عساه يتمم ما وعدها به ‥ فلما اعتزم ترك بولونيا والعودة الى باريس، ولم يكن قد أنجز وعده لها بعد، أبت أن تعود معه ‥ وأعلنته بأنها قررت الاقامة فى مكان قصى باحدى قرى وطنها النائية ، مكرسة بقية حياتها للصلاة من أجل بولونيا والحداد على هذا الوطن المنكوب ‥ !

فلما علم هو بعزمها هذا قال لها متوسلا مستعطفا :

ـ اننى أعلم انك تستطيعين الحياة بدونى ‥ وأعلم انك لا تحبينني !‥ غير انك امرأة كبيرة القلب نبيلة المشاعر ،

فلا أصدق أنك من القسوة بحيث تحرمينني تلك اللحظات الهنيئة التى أقضيها بجوارك كل يوم ٠٠ تلك اللحظات التى لا أستشعرها الا بقربك ، والتى أحس أثناءها بأننى أسعد رجل فى العالم ٠٠ !

٠٠ وكانت ترتسم على وجهه وهو يتفوه بهذه العبارات امارات الحزن والمرارة ٠٠ فتحركت فى قلبها عوامل الاشفاق على هذا الرجل الذى يحكم العالم ، ولا يملك أن يحكم قلبه ! ٠٠ فهونت عليه لوعته ورحلت معه الى باريس ٠٠ !!

ابن الامبراطور ٠٠ !

◆ **رحلت** مارى فالفسكا الى باريس فى مستهل عام ١٨٠٨ ٠٠ وأثناء حملة عام ١٨٠٩ سافرت الى فينا حيث أعد لها بيت جميل بجوار قصر « شونبرن » ٠٠ .وهناك اكتشفت أنها ٠٠ « حامل » !

وعقب عقد معاهدة فينا وضعت مارى ، عام ١٨١٠ ، مولودا ذكرا هو «الكسندر فلوريان جوزيف كولونا فالفسكا» ٠٠ وفى نهاية عام ١٨١٠ عادت مدام فالفسكا الى باريس ، تصحبها أخت زوجها ـ الشرعي ـ الاميرة جابلونسكا، وهناك أقامت مع ابنها الوليد فى أحد فنادق العاصمة الفرنسية الجميلة ٠ وكان نابليون يشرف على تنفيذ رغباتها وجعل حياتها سهلة ميسرة ممتعة ٠٠ فحجز لها مقصورة فى جميع مسارح باريس ، وفتح أمامها أبواب المتاحف على مصاريعها ٠٠ كما أمر دوروك بأن يسهر عليها وعلى ابنها ٠٠ وخصص لها مبلغ عشرة آلاف فرنك شهريا ٠

وكان نابليون يختلس الاوقات لزيارتها كلما سمحت له مشاغله بذلك ٠٠ أو يستقدمها أحيانا الى القصر مع ابنها، الذى خلع عليه أبوه لقب (كونت دى لامبير) !

ولم يشك أحد ، ما عدا البولونيين ، فى علاقة نابليون بمدام فالفسكا ٠٠ اذ ظلت فى طى الكتمان ! وساعد على كتمانها أن مارى كانت قليلة الظهور فى المجتمعات والحفلات ، شديدة التحفظ ، ميالة الى العزلة ، لا تستقبل من الزوار الا القليلين جدا ٠٠ وكانوا جميعا من أبناء وطنها !

هل حارب نابليون روسيا ٠٠ لارضاء عشيقته ؟

◆ **وفى** مستهل عام ١٨١٢ بدأت العلاقات بين فرنسا وروسيا تسوء وتنذر بحرب قريبة !٠٠ فعم السرور والفرح أهل بولونيا ، الذين كانوا ينتظرون هذه الحرب بصبر نافذ، حتى يحقق نابليون وعده لهم بطرد روسيا من بلادهم واعادة استقلالها اليها ٠٠ وبلغ بهم السرور مبلغا جعلهم يرقصون فى الشوارع فرحا بدنو هذه الحرب ٠٠!

وقبيل ذلك حرص نابليون على اتخاذ اجراءات كثيرة لتأمين مستقبل مارى فالفسكا ومستقبل ابنها ، من الناحية المالية ، فسجل باسمها ممتلكات عقارية ، وقرر لها مخصصات مالية كبيرة ٠٠ وحين نشبت الحرب عادت مدام فالفسكا الى فرسوفيا ، لتكون قريبة من مقر قيادة نابليون ، وتتابع أنباء المعركة عن كثب ، متذرعة لعودتها فى الظاهر بذرائع شتى ٠٠ فلما لم يستدعها نابليون الى مقر القيادة آثرت العودة الى باريس. غير انه لم ينس وسط جحيم المعركة المحتدمة مع الروس عشيقته وابنه ، فأرسل من (نوجان) خطابا فى الثامن من فبراير سنة ١٨١٤ يكلف فيه مدير شؤونه المالية بسرعة انجاز الاجراءات التى يريد اتخاذها لتأمين حياة مارى وابنها (كونت دى لا مبير) ٠٠ وقال فى أحد خطاباته لوكيله فى هذا الصدد : « لك مطلق الحرية فى اتخاذ ما تراه من اجراءات فى هذا

الشأن .. غير اننى أرجوك الاسراع.. ان مايهمنى هو مستقبل « الولد وأمه » !

« ن »

وكانت مارى فالفسكا تجهل كل شىء عن هذا الموضوع ، فلم تكن هناك نفس تجردت عن الغايات الذاتية والمطامع المادية مثل نفس هذه المرأة النبيلة المجاهدة !

بعد الهزيمة .. !

◆ **وعند** ما كان نابليون فى (فونتنبلو) ـ وكان نجمه قد أخذ فى الافول ، وتخلى عنه جميع أصدقائه ! ـ وصلت مدام فالفسكا لتبقى بالقرب منه فى ساعات محنته ، سيما وانه كان يعانى آلاما جسمانية مبرحة .. وذات يوم ذهبت لزيارته ، وطلبت الاذن لها بالدخول .. غير أنه كان ذاهلا عنها بآلامه المرة وهواجسه الفتاكة ، فلم يتذكر وجودها الا بعد أن رحلت ـ وكان قد طال بها الانتظار ـ فقال نابليون آسفا :

ـ يا لها من امرأة طيبة تعسة !.. أحسبها ظنت اننى قد نسيتها ..!

غير أنها أرسلت اليه خطابا رقيقا بعد رحيلها ، فرد عليها بالخطاب الآتى :

« شكرا ! لقد جاءتنى رسالتك المؤرخة يوم ١٥ ...
« وان مشاعرك النبيلة لتمسنى فى تضاعيف قلبى . انها
« مشاعر جديرة بنفسك السامية وقلبك الحنون !.. وعند
« ما تنتهين من ترتيب شؤونك الخاصة وتذهبين للاستشفاء
« فى احدى مدن المياه المعدنية فسوف يسعدنى أن آتى لرؤياك
« ورؤية ولدنا الذى ستبقى عواطفى نحوه قوية دائما لا تتغير ،
« اعتنى بصحتك ولا تحزنى .. ولتتجه أفكارك الى بحنان ،
« ولا تشكى فى حبى أبدا .. »

« ن »

نابليون ٠٠ الوالد الحنون !

◆ **وفى** شهر أغسطس اعتزمت مدام فالفسكا أن تبحر الى نابولى كى تتفقد الممتلكات التى سبق أن أوصى بها نابليون لابنها ٠ وقبل رحيلها طلبت الى الامبراطور أن يستقبلها ، وحرصت على أن يحاط طلبها هذا بكتمان شديد ٠٠ !

وفى أول سبتمبر ، وعندما أرخى الليل سدوله ، وجدت مارى فى انتظارها عند الميناء عربة يجرها أربعة جياد ، وثلاث جياد أخرى مطهمة ٠٠ فركبت العربة مع ابنها وأختها ٠ أما أخوها الكولونل « لاشنزكى » فقد امتطى صهوة جواد من الجياد الثلاثة وهو يرتدى الزى العسكرى البولونى ٠٠ وسارت القافلة فى ضوء القمر الساطع

وفى (برونشيو) فوجئوا بالامبراطور فى انتظارهم ، يتبعه أحد رجال الحاشية واثنان من الخدم !٠٠ فخرجت مدام فالفسكا من العربة وامتطت أحد الجياد ، تاركة طفلها مع أختها فى العربة ٠٠ وسار الجميع حتى وصلوا الى منزل فى قمة الجبل ٠٠ فلما دخلوه قال لها نابليون مداعبا : « سيدتى !٠٠ هاك قصرى تحت تصرفك » ٠٠ ثم ترك للسيدتين الاشراف على اعداد المنزل وتهيئته ٠

وفى الصباح أخذ نابليون يداعب طفله ، وقد وضعه على ركبتيه ، وكانت تبدو عليه علامات البشر والصحة ٠٠ كما كانت ضحكاته تسمع من بعيد !

وعند الظهر تناول الجميع طعام الغذاء في جو من المرح، وانقضى النهار بين حديث ممتع ونزهات جميلة ٠٠ ولما حان موعد العشاء رغب نابليون فى أن يتناول ابنه العشاء معه ٠ غير أن مارى عارضته بدعوى أن الطفل كثير الشغب والعربدة، وهى تخشى أن يضايقه ٠٠ فقال لها انه لا يكره عربدة الاطفال

ولا شغبهم ، فقد كان هو نفسه أكبر طفل مشاكس مشاغب!٠٠
ثم أضاف مازحا :

ـ لقد كنت أضرب أخى « جوزيف » ٠٠ وأرغمه على أن يكتب لى واجباتى المدرسية !٠٠ ولما كنت أعاقب بأكل الخبز القفار كنت أذهب عند رعاة الاغنام وأستبدله بخبز طازج ٠٠!!

وبعد فترة هدوء قصيرة بدأ الطفل ، البالغ من العمر أربع سنوات ، يعبث ويشاغب ٠٠ فقال له الامبراطور ضاحكا:

ـ أنت اذن لا تخشى السوط؟!٠٠ سأعلمك كيف تخشاه٠٠ لقد ضربت أنا به مرة واحدة غير أننى لم أنسها طول حياتى٠٠!

ثم أخذ يقص قصة (العلقة) التى أخذها بالسوط ، وتتلخص فى أنه ـ وشقيقته بولين ـ أخذا يسخران ذات يوم من جدهما لامهما ٠٠ فاستشاطت أمهما غضبا من وقاحتهما وانهالت عليهما بالسوط !٠٠ فكانت (علقة) لم ينسياها قط٠٠!

وهنا استدرك الطفل ببداهة الاطفال الملهمة قائلا :

ـ ولكننى لم أسخر من والدتى قط ٠٠!!

فسر نابليون من سرعة خاطر ابنه سرورا بالغا ، وأخذ يقبله بحنو وهو يردد :

ـ لقد أحسنت الجواب ٠٠!!

فلما أقبل الليل ذهبت مدام فالفسكا الى الميناء لتبحر منه ، فصحبها نابليون ، وهناك قبل ابنه وهو يتمتم :

ـ الوداع يا ابنى الحبيب ٠٠!!

وأبحر الجميع الى نابولى ، حيث بقيت فيها مارى الى آخر مارس سنة ١٨١٥ ٠٠ وكان نابليون قد نفى فى هذه الاثناء الى جزيرة البا ٠٠ فلما فر منها عائدا الى باريس ، رأت أن واجب الوفاء يقتضيها أن تكون المرأة الاولى التى يراها بجواره فى أيام محنته القاصمة الاخيرة ، فخفت عائدة الى فرنسا ٠٠

تتحرر من الزوج والعشيق ·· فتتزوج !

◆ ثم نفى نابليون ـ على أثر هزيمته فى واترلو ـ الى جزيرة سانت هيلانه ·· ووجدت مدام فالفسكا نفسها أخيرا محررة من جميع القيود ، ولا سيما بعد وفاة زوجها الشرعى «فالفسكا» فى سنة ١٨١٤ ، فتزوجت عام ١٨١٦ فى مدينة (لييج) من الجنرال « دورنانو » ، ابن عم الامبراطور نابليون ، الذى كان من كبار قواد الحرس الامبراطورى وأشجعهم وأرفعهم شأنا !

غير ان هـــذا الزواج قد حز فى نفس أسير سانت هيلانة !·· فقد روى أحد مرافقيه فى منفاه انه ظل مقيما الى النهاية على حبه الشديد لمدام فالفسكا ، وانه كان يعتقـد أن ما جبلت عليه من نفس صافية وخلق نبيل سيمنعانها من أن تحب شخصا آخر سواه ··!

◆ غير أن عهد المسكينة بالسعادة والاستقرار لم يطل ·· فقد وضعت مولودها من زوجها الثانى فى ٩ يونيه سنة ١٨١٧ ـ فى مدينة (لييج) ـ ثم عادت بعـد ذلك الى باريس لتلحق بزوجها الجنرال (دورنانو) ·· فما كادت تستقر فى باريس حتى وافاها القدر المحتوم فى الخامس عشر من ديسمبر سنة ١٨١٧ فى الفندق الذى كانت تقيم فيه ، بشارع النصر ··

أما ابنها الذى رزقته من نابليون فقـــد كتب عنه أبوه الامبراطور فى وصيته :

« اننى أرغب فى أن ينخرط « الكسندر فالفسكا » فى « سلك الجندية كى يكرس حياته لخدمة فرنسا »

ولقد أدى « الكسندر فالفسكا » رسالتــه خير أداء ، وحقق أمنية أبيه العظيم بما قام به من جليل الاعمال ، فى عالم السياسة والادب على السواء ·· تلك الاعمال التى ستظل مسطورة فى تاريخ فرنسا على الايام ··· (وليس هذا مجال تفصيلها بطبيعة الحال)

الحياة قصة

روائع القصص العالمى

عزيزى القارىء ...

فى الاعداد السابقة من ((كتابى)) قدمت لك فى هذا الباب على التوالى قصص : ((أموك)) أو (غرام تحت سماء الشرق) لستيفان زفايج .. و((شجرة التفاح)) أو (قلب عذراء) لجون جالزورثى .. ثم ((مرتفعات وذرنج)) لاميلى برونتى .. و((التلميذ)) أو (عندما يضل الشباب) لبول بورجيه .. و((احدب نوتردام)) لفيكتور هوجو.. وأخيرا ((جريمة حب)) لبول بورجيه ..

واليوم اقدم لك فيما يلى قصة شارلوت برونتى الخالدة ((جين اير)) .. يليها فى الاعداد التالية من كتابى باذن الله اروع ما كتب اساطين القصة العالمية المحدثين ، الى جانب مجموعة منتقاة من القصص (الكلاسيكية) الخالدة التى طالما سمعت عنها دون أن تتاح لك من قبل فرصة قراءتها، ومنها :أيام بومبى الاخيرة (لوردليتون) مانون ليسكو (بريفو) ايفانهو (والتر سكوت) صورة دوريان جراى (اوسكار وايلد) اوليفر تويست (تشارلس ديكنز) سافو (الفونس دوديه) البؤساء (فيكتور هوجو) غادة الكاميليا (ديماس) مدام بوفارى (فلوبير) نانا (اميل زولا) تاييس (اناتول فرانس) الجريمة والعقاب (دستويفسكى) الحرب والسلم (تولستوى) .. الخ

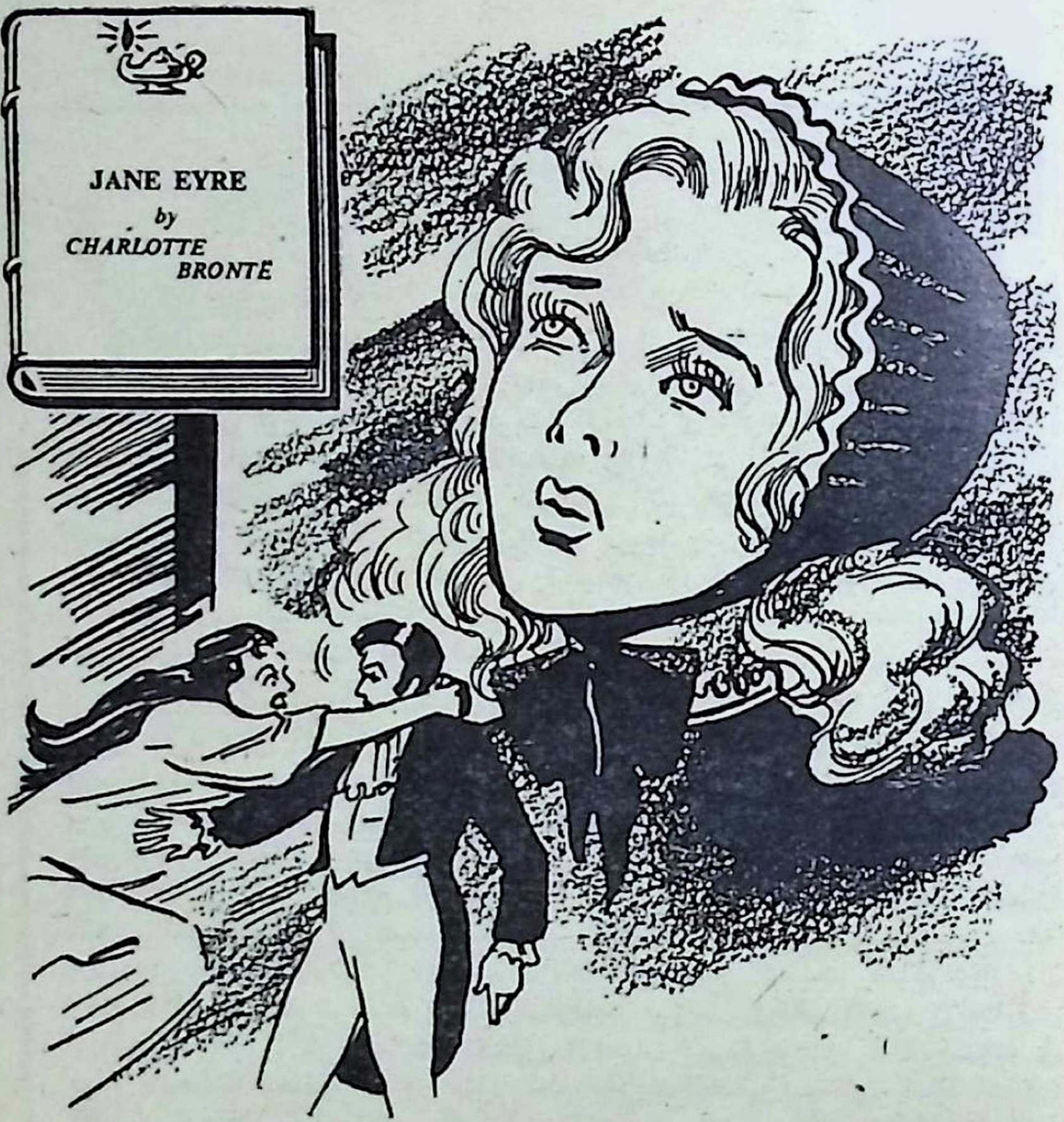

شارلوت برونتي

جين اير

المؤلفة

(١٨١٦ – ١٨٥٥)

◆ ولدت «شارلوت برونتى» – كبرى الشقيقات (برونتى) الثلاث – فى ٢١ أبريل سنة ١٨١٦ .. ولم تمض سنوات حتى انتقل ابوها – وكان قسيسا – الى قرية «هاورث» بالريف الانجليزى ، وهناك نشأت شارلوت وشقيقتاها اللتان تصغرانها – «اميلى» و«آن» – نشأة كئيبة خالية من المسرات ، وقضين فى ذلك المحيط الموحش اكثر حياتهن ، باستثناء فترات قصيرة رأين فيها «العالم الخارجى» ولا سيما حين قمن برحلة الى اوربا مع اهلهن كان لها عليهن فضل تثقيفهن وزيادة معارفهن وتوسيع مداركهن ... ثم اشتغلت شارلوت بالتدريس لمدة سنة ، هجرته بعدها كى تعمل مربية خاصة لدى احدى الاسر

◆ وفى ١٦ اكتوبر سنة ١٨٤٧ نشرت شارلوت قصتها هذه الخالدة «جين اير» ، فى نفس العام الذى اصدرت فيه اختها الوسطى اميلى قصتها المشهورة بدورها : «مرتفعات وذرنج» .. لكنها حرصت على نشر القصة متخفية وراء اسم رجل مستعار هو «كرير بيل» .. فقد كان عسيرا عليها ، وهى ابنة رجل الدين ، ان تنشر باسمها قصة حب عنيفة ! .. لكن النجاح الكبير الذى قوبلت به القصة ونفاد طبعتها الاولى شجعها على ان تعيد طبعها فى العام التالى باسمها الحقيقى ، بعد ان صدرتها باهداء الى الاديب الانجليزى ذائع الصيت «تاكيراى» .. ومنذ ذلك التاريخ توطدت شهرة شارلوت برونتى فى عالم الادب الانجليزى .. وكان الذى أثار دهشة المحافل الادبية جميعا توصل فتاة نشأت فى بيئة متحفظة «مغلقة» ، فى مثل تلك القرية الصغيرة ، الى كتابة هذه القصة الحافلة بالعواطف القوية والتصوير الدال على معرفة عميقة

– ١ –

« جين اير » تروى قصتها ..

◆ **كانت** طفولتى تعسة بائسة .. فعلى أثر وفاة أبى ، ثم أمى ، فى خلال شهر واحد – وأنا بعد فى عامى الاول – أخذنى عمى « ريد » لاعيش فى بيته بجهة « جيتسهيد هول » ، مع ابنه وابنتيه .. **فلما أحس عمى بدنو أجله أوصى زوجته بأن تتولانى**

باسرار الصلات الوثيقة بين الرجل والمراة..
وقد ظلت هذه «المعجزة» مستعصية على الافهام حتى فسرها علم النفس الحديث بان شارلوت انما افصحت فى كتابها عن العواطف الطبيعية التى كانت مكبوتة فى عقلها الباطن بحكم حياتها الموحشة ..

وقد كانت «جين اير» اول قصة ، بقلم امراة ، تصدت لتصوير عواطف المراة من وجهة نظرها الواقعية ، وكشفت لقارئها أن للمراة مشاعرها الخاصة ، وشهواتها الخاصة ، وآمالها ومخاوفها ومتعها الخاصة .. !

◆ وفى العام التالى لنشر قصتى «جين اير» و«مرتفعات وذرنج» ماتت اميلى برونتى مؤلفة القصة الثانية .. اما شقيقتها شارلوت فاستمرت فى الكتابة واصدرت على التوالى قصتى «شيرلى» ، ثم «فييت» ..

وفى سنة ١٨٥٤ تزوجت شارلوت .. لكن داء الصدر لم يلبث ان أودى بها ، كما أودى بشقيقتها ، فماتت فى ٣١ مارس سنة ١٨٥٥ - فى التاسعة والثلاثين من عمرها - وبموتها انطفات عبقرية من العبقريات النسائية النادرة على مر الاجيال ، تفتحت فى ظروف لا تساعد على التفتح .. كما تتفتح الزهرة البرية فى تربة الصحراء !

ورغم ان النقاد يضعون قصة «مرتفعات وذرنج» - التى لخصناها فى «كتابى الثالث» - فى مرتبة التفوق على قصة «جين اير» ، فان هذه القصة الاخيرة تحظى من القراء برواج اعظم !

برعايتها كما ترعى أبناءها سواء بسواء .. لكنه لم يكد يلفظ أنفاسه حتى نسيت المرأة وعدها فبدأت تسومنى العذاب ، وتمعن فى اذلالى واستغلال « يتمى » .. وشاركها فى خطتها أولادها الثلاثة المدللين المتغطرسين : اليزا ، وجورجيانا ، وجون .. فكانوا يحرموننى من كل متع الطفولة السعيدة التى يستأثرون بها وحدهم !.. وهكذا صار مركزى بينهم مركز

الصبية اليتيمة المنبوذة ٠٠ التى تدفع ثمن حماقاتهم ، وتسأل عن أخطائهم ، وتكفر عن سيئاتهم !

وذات يوم ، وكنت قد بلغت العاشرة ، حبستنى امرأة عمى فى غرفة مظلمة بمفردى ، عقابا لى على تصرف نسبته الى ٠٠ فانهارت أعصابى تحت ضغط الاضطهاد المتصل وأصبت بتشنجات أشبه بنوبة الصرع ٠٠

وبعد أن قضيت ثلاثة أشهر تحت العلاج ، لا أبرح غرفتى ٠٠ استدعيت الى حيث جلست الاسرة فى حجرة الطعام ، وهناك قدمتنى امرأة عمى الى رجل غريب صارم الهيئة يدعى مستر « بروكلهرست » ، بعد أن وصفتنى له بأنى صبية « مغرورة » مخاتلة !٠٠ فأجابها الرجل ، على مسمع منى ، بقوله :

ـ ان التواضع فضيلة يوصى بها الدين ، وهى متوافرة فى تلميذات مدرسة « لوود » ، بفضل التعاليم الفاضلة التى تلقن لهن والبساطة التامة التى تفرض عليهن فى الطعام واللباس ٠٠

وفى نهاية الحديث قررت مسز ريد متحمسة أن تلحقنى بتلك المدرسة ـ مدرسة لوود الخيرية للايتام ـ فى أقرب فرصة ٠٠ ثم خرج الضيف ، وبقيت مع امرأة عمى وحدنا ٠٠ فشعرت بأنى عاجزة عن تحمل ظلمها وافترائها على لحظة واحدة بعد الآن ، وصرخت روحى المكبوتة فى أعماقى مطالبة بالثأر !٠٠ صار حتما على أن أتكلم ٠٠ فصحت بها وأنا أرتجف من رأسى الى قدمى من فرط انفعالى ، وقد تملكنى شعور غريب شاذ ٠٠ بالتحرر :

ـ أنا لست مخاتلة ولا مغرورة ! وانه ليسرنى أنك لا تمتين الى بصلة القربى ، فانك أنت المغرورة المخاتلة !

واذ ذاك بدا على مسز ريد ما يشبه الفزع ٠٠ بينما استطردت أنا صائحة بكل ما فى وسعى من عنف :

ـ أقول لك ان الختل والخداع ليسا من طبعى ٠٠

ـ جين ، عودى الى غرفتك لتنامى ٠٠

ـ لن أستطيع أن أنام ٠٠ انى أمقت العيش هنا ٠٠ ارسلينى الى تلك المدرسة فورا ٠٠!

فغمغمت مسز ريد : « سوف أفعل ! » ٠٠ ثم تركتنى فى الغرفة وخرجت ٠ تركتنى استمرىء لذة انتصارى عليها فى أعنف معركة اشتبكنا فيها علانية !

فى مدرسة الايتام

◆ **وفى** « مدرسة لووود للايتام » ، قاسيت مع زميلاتى الثمانين معيشة الشظف والحرمان من الكثير من متع الحياة ووسائل الراحة ، والخضوع للعديد من النظم والاجراءات الصارمة ٠٠ وهكذا اجتمع الطعام الردىء مع الثياب غير اللائقة ، وبرد الشتاء القارس ٠ اجتمعت كلها لتضاعف من تبرمى بحياتى القاسية داخل جدران المدرسة ٠٠ الحياة التى ما كنت لاطيقها لولا أن قيضت لى الاقدار الرحيمة زميلة أنست اليها وأنست هى الى ، وكانت تدعى « هيلين برنز » ٠٠

ثم حل الموت ضيفا على مدرسة « لووود » ، فانتزع أرواح الكثيرات من زميلاتى ، مستخدما للوصول الى هدفه وسطاء مختلفين : كان منهم « التيفوس » ، الذى تفشى فى عنابر التلميذات اليتيمات ٠٠ ثم نقص التغذية ٠٠ والموقع غير الصحى للمدرسة ٠٠ وأخيرا جاء « السل » فحمل روح صديقتى الوحيدة العزيزة « هيلين » ، الى الراحة الابدية ٠٠

على هذا المنوال من الحياة الكئيبة المقبضة ، وبين جدران ذلك المعهد الموحش ، أنفقت من عمرى ستة أعوام ، حصلت فى نهايتها على شهادة التخرج فعينت مدرسة فى نفس المعهد٠٠

وقضيت في عملي ذاك عامين آخرين ، أعانني على احتمالهما لطف الناظرة « مس تمبل » وطيب معشرها ..

فلما استقالت الناظرة المذكورة لتتزوج ، انتزعت معها من مشاعرى كل ما كان يربطنى بالمعهد ويعيننى على احتمال الحياة بين جدرانه .. فانتابنى شوق قوى الى التحرر من « سجنى » .. وبادرت الى نشر اعلان فى الصحف عن استعدادى للعمل كمربية خاصة لدى احدى الاسر ..

الحياة الجديدة !

◆ **وفى** أوائل « سبتمبر » تلقيت عرضا مناسبا من أسرة تقطن فى جهة « ثورنفيلد هول » ، فحزمت متاعى وغادرت معهد « لووود » ، غير آسفة ..!

وأدهشنى الاستقبال الودى « الحار » الذى استقبلت به فى مقر عملى الجديد ، والذى لم أكن أنتظر أن يكون من نصيبى « كمربية خاصة » . وعلى أثر وصولى شرحت لى مديرة الدار - وكانت امرأة متقدمة فى السن هادئة الطبع تدعى « مسز فيرفاكس » - واجبات وظيفتى وحدود عملى . **قالت ان مهمتى هى الاشراف على تعليم صبية فى الثامنة من عمرها تدعى « أديل فارينز » موضوعة تحت وصاية صاحب الدار « مستر روشستر »** - المتغيب فى تلك الآونة ، والذى كانت مسز فيرفاكس تمت اليه بصلة قرابة بعيدة ..

وكان كل شىء فى الدار فاخرا رائعا : الرواق الطويل ، والقاعة الكبرى ، وغرفة الطعام البديعة ، وساعة الحائط الضخمة المصنوعة من خشب البلوط .. الى آخر محتويات المبنى المؤلف من ثلاثة طوابق ، والمطل على غابة من الاحراش الشائكة الضخمة التى تخلب البصر !!.. **بحيث شعرت وأنا أتأمل كل ذلك الجمال أن مظهرى المتواضع ، ووجهى الشاحب ، وقسماتى غير المنتظمة ، وجسمى النحيل .. لم يكن ليتسق**

فى شىء مع الجلال المحيط بى ، ولو ان ردائى كان وقورا أنيقا لا بأس به ..

وسألت مسز فيرفاكس وهى تجوب بى أرجاء الدار :

– يخيل الى أن مستر روشستر رجل متأنق فى مزاجه، يصعب ارضاؤه !؟

– ليس الى هذا الحد ، لكن ذوقه رفيع . وقد ورث هذه الضيعة الواسعة عن آبائه وأجداده الذين ملكوها منذ قرون..

– وهل هو شخص محبوب ؟

– أنا أحبه ، ومستأجرو أرضه يعتبرونه مالكا ذا نزعات حرة .. لكنه لا يقيم هنا الا فى فترات قصيرة متقطعة .

– وما هى شخصيته وطباعه ؟

– انه فيما أعتقد رجل طاهر الذيل ، لا عيب فيه ، وان يكن غريب الاطوار بعض الشىء . وهو دائم الترحال.. وأحيانا يبدو محيرا غير مفهوم ، بحيث لا تستطيعين الجزم بما اذا كان جادا أم هازلا !

ضحكة تتردد فى الرواق !

◆ **وكان** الطابق الثالث من الدار ، الذى حشـــد فيه كل الاثاث العتيق ، ذا طابع غريب .. كان أشبه بصومعة عامرة بالذكريات ، أو بيت « مسكون » بالاشباح !.. وأثناء مرورى مع مسز فيرفاكس فى الرواق الطويل الذى يتخلله ، فوجئت بسماع ضحكة غريبة خافتة ، ازدادت علوا وارتفاعا بالتدريج! فلما سألت مسز فيرفاكس عن أمرها فى دهشة ، أجابتنى بقولها : « أغلب الظن أنها احدى الخادمات ، المدعوة « جريس بول » فيما أحسب .. » ثم أردفت جوابها بالمناداة على صاحبة هذا الاسم ، كأنما لتبدد قلقى .. ففتح على الاثر باب احدى الحجرات ، وبرزت منـــه « جريس بول » المذكورة ، وكانت امرأة متينة البناء قوية العضلات !.. فطلبت اليها المديرة أن

تكف عن ضجيجها ، فاستمعت هذه الى قولها ثم توارت من حيث أتت دون أن تنطق بكلمة !٠٠ وعلى الاثر حولت مسز فيرفاكس دفة الموضوع بسؤالى عن تلميذتى ٠٠ ثم مضينا لنتناول الطعام

وبمضى الايام ألفت عملى الجديد ، واسترحت اليه ٠٠ وكانت تلميذتى مطيعة وذات قابلية للتعليم ٠٠ وعلى هذا المنوال انقضى شهر اكتوبر ، فنوفمبر ، ثم ديسمبر ٠٠

◆ **وفى** عصر أحد أيام شهر يناير خرجت أمشى فى أحد ممرات الغابة المشهورة بأزهارها البرية الجميلة ٠ وبرغم ان الجليد كان يغطى الارض فان معطفى السميك والفراء الذى كان يغطى معصمى قد أشعرانى بالدفء الكافى ٠٠ **وحين تعبت من المشى جلست أستريح وأمتع حواسى بسكون الغابة فى الاصيل ٠٠ ولم يلبث أن شق السكون صوت حوافر جواد يقترب ٠ ثم ظهر الجواد يتقدمه كلب كبير يعدو ويقفز كمن يفتح أمامه الطريق ٠٠ وفجأة انزلق الجواد على الجليد فسقط براكبه الذى راح يسب ويصخب** ٠ وكان سقوطه على قيد خطوات منى ، فرأيت من واجبى أن أخف الى نجدة الراكب لعله يكون قد أصيب بسوء ٠٠ فتقدمت اليه أسأله : « هل فى وسعى أن أفعل شيئا من أجلك ؟ »

فأجابنى الرجل وهو ينهض من عثرته : « كلا ، شكرا ٠٠ أعتقد أنه لم ينكسر من عظامى شىء ٠٠ مجرد رض بسيط »

وفى ضوء الغروب الخابى استطعت أن أميز ملامحه العابسة وحاجبيه الغزيرين ٠ كان فى نحو الخامسة والثلاثين ، متوسط الطول ، عريض الكتفين ، منبسط الصدر ٠٠٠ وبعد فترة صمت عدت أقول له : « **لست أستطيع أن أتركك ياسيدى قبل أن أطمئن الى انه سيكون فى مقدورك أن تمتطى جوادك لتعود به الى دارك** »

فأجابنى : « أعتقد انك أنت التى كان ينبغى أن تكونى

الآن فى بيتك .. أين تقطنين ؟

- هناك ..

- تعنين فى ذلك المنزل ذى الطوابق الثلاثة ؟

- نعم يا سيدى

- ومنزل من هو ؟

- ان صاحبه يدعى مستر « روشستر »

- لكن .. لكنك لست من خادمات المنزل طبعا .. لا بد أنك ...

- أنا المربية .

- آه ، المربية ! يا لغبائى ، أرجو المعذرة .. يبدو ان الضرورة ستلجئنى الى أن أتكىء عليك .

ثم وضع يده الثقيلة على كتفى وسار متكئا على - وهو يظلع - الى جواده ، فامتطاه بمعاونتى . وفى مثل لمح البصر لكز جواده بمهمازه فلم تمض لحظات حتى كان الرجل وجواده وكلبه قد اختفوا فى كبد الظلام !

وأحسست من هذا « الحادث » العارض بشىء من الانشراح الذى بدد سآمة حياتى الرتيبة .. فلما بلغت الدار بعد حين فوجئت برؤية كلب ذلك الرجل المجهول رابضا على السجادة أمام المدفأة .. وعلمت من مسز فيرفاكس أن رب البيت « مستر روشستر » قد عاد من سفره ، وانه أصيب برضوض على أثر سقوطه من جواده !!

السيد المتغطرس !

◆ وفى المساء التالى قدمونى اليه .. ورأيته عابسا، صارم الوجه ، تطغى شخصيته على أناقته . ثم أخذ يستجوبنى بلهجته

الآمرة عن ماضى حياتى فى مدرسة « لووود » .. وحين رأى بعض الرسوم الملونة التى رسمتها فى أوقات فراغى هنأنى عليها مبديا اعجابه بها .. وفجأة ، وبلهجة خشنة ، طلب الى أديـل ، والى مسز فيرفاكس ، والى .. أن ننصرف من الحجرة !

وفى أمسيات تالية كان يلذ لمستر روشستر أن يجاذبني أطراف الحديث ، بلهجته الفظة المتغطرسة . وكانت أحاديثه لا تكاد تخرج عن موضوع حياته الماضية . وكنت صريحة معه على الدوام ، الصراحة اللائقة بمركزى ومركزه .. وذات مرة سألنى على حين غرة عما اذا كنت أراه وسيما ؟.. فأجبته : « كلا يا سيدى ! » .. وفى مناسبة أخرى صارحته باعتقادى انه لا يميل الى البر وفعل الخير ، فان جفاءه وتصرفاته لم تكن توحى بأنه محسن !.. واذ ذاك أجابنى بقوله : « **ان لى ضميرا ، وقد كان لى يوما قلب رقيق ، لكن الاقدار سددت الى من الضربات بقبضتها القاسية ما جعلنى اليوم أغبط نفسى على صلابة قلبى ..!** »

◆ **وخلال** الاسابيع التالية ازداد مسلكه معى ودا ودماثة، وقلت نوبات غطرسته وتعاليه .. وحيثما كان يلقانى مصادفة كان يبدو عليه الترحيب والانشراح . و « أحاديث المساء » التى كان يعتبرها فى البداية « شرفا » لى ، صارت بمرور الايام مصدر متعة بالنسبة له بدوره !.. صار يعاملنى كقريب وليس كسيد ، وبدأت أعجب به بالتدريج.. لكن ذلك لم يمح فى نظرى أخطاءه وعيوبه ، وغطرسته ، وقسوته ، وفظاظته..!

وذات ليلة ، وأنا فى فراشى أفكر فى هذه الخواطر ، قبل أن يغلبنى النعاس ، شل الرعب أطرافى لدى سماعى أصابع مجهولة تتحسس بـاب مخدعى !.. ثم تلت ذلك ضحكة شيطانية مرعبة جلجلت خارج غرفتى !.. وسمعت خطوات تتراجع نحو السلم المؤدية الى الطابق الثانى ، فساءلت نفسى :

« أكانت تلك ضحكة الخادمة المدعوة « جريس بول » ؟٠٠ أهى مسكونة بالشياطين ؟ »

وفتحت الباب لاذهب الى مسز فيرفاكس ، فوجدت هواء الردهة الخارجية خانقا وقد تلبد بسحب الدخان الازرق المنبعثة من مخدع مستر روشستر !٠٠ **فاندفعت مسرعة الى داخل المخدع ٠٠ واذا النار قد اشتعلت فى الستائر المحيطة بفراش مستر روشستر ، والدخان المتكاثف يكاد يزهق أنفاسه٠٠ فتناولت ابريق الماء الموضوع بجوار الفراش وسكبت محتوياته على ألسنة النار حتى أخمدتها** !٠٠ واستيقظ السيد مفزوعا فأدهشه أن يجد ثيابه مبتلة وفراشه غارقا فى الماء ٠٠ فصاح بى :

– هل تآمرت لاغراقى يا جين اير ؟ يا لك من ماكرة !

ورويت له ما حدث ، فطلب الى أن أنتظر حيث أنا حتى يحقق جلية الامر ٠٠ وبعد برهة قصيرة عاد الى الغرفة وقد شحب وجهه وبدا عليه الانقباض ، وقال يخاطبنى : « تماما كما توقعت ، انها « جريس بول » ٠٠ هى التى تضحك هذه الضحكة ٠ انها مخلوقة شاذة ! » ٠٠ ثم رجانى أن أكتم الحادث فلا أقص أمره على أحد ٠٠ وفيما أنا أهم بالخروج أخذ يدى فى يديه وشكرنى على انقاذى حياته ، ثم قال يودعنى : « طابت ليلتك يا منقذتى العزيزة ! »

وكانت فى صوته حيوية غريبة ، وفى عينيه نار غامضة !

– ٢ –

الضيفة الحسناء !

◆ **لكن مستر روشستر مع ذلك لم يتخذ اى اجراء ضد الخادمة الاثيمة التى تآمرت على حياته ، بل انه لم يفصلها حتى من خدمته !٠٠ وفى اليوم التالى للحادث علمنا انه سافر ، ولم نسمع عنه اى نبأ طيلة اسبوعين ٠٠ وخلال هذه الفترة شطح خيالى بى بعيدا عن حدود المنطق والمعقول ، ثم افقت من**

أحلامي فانبت نفسي على غبائي الذي صور لي أنني صرت أحتل من قلب مستر روشستر مكانة خاصة !

وذات يوم تلقينا من السيد نبأ يقول انه سوف يعود وبصحبته عدد من الضيوف ٠٠ فدب في جميع مرافق قصر ثورنفيلد نشاط غير عادي ، وبدات فيه نوبة تنظيف وتلميع شملت كل أثاثه ومراياه وسجاده ٠٠ ثم وصل السيد اخيرا ومعه جماعة من النسوة الارستقراطيات ، كانت بينهن آنسة تدعى « بلانش انجرام » قالت مسز فيرفاكس انها موضع عناية خاصة من جانب مستر روشستر !

والواقع أنها كانت على قدر من المهابة والجلال ، والكبرياء والجمال ٠٠ بل انها كانت من «التاطف» معي بحيث احست بوجودي ، وقالت على مسمع مني انها لا تكن لطبقة المربيات غير ٠٠ الاحتقار والازدراء !٠٠ وقد انتظرت ليلتئذ بين الجمع بعدالعشاء ، حتى فرغ السيد من أغنية كان يرددها بصوت خافت بمصاحبة عزف على البيانو تولته الآنسة بلانش ٠٠ وعندئذ تسللت من المكان في هدوء ٠٠!

لكن خفق حذائي في الردهة الخارجية بلغ سمع مستر روشستر ، فلحق بي ٠٠ وبعد أن حدق في لحظة ابتدرني بقوله : « انك تبدين مكتئبة ٠٠ صارحيني بالسبب ٠» ثم استطرد وقد لحظ أنني على وشك البكاء : «لولا خشيتي أن تفاجئنا احدى الخادمات بمرورها لاستقصيت الإمر كله ٠ طاب مساؤك يا ٠٠٠٠» ثم عض شفتيه وتركني فجأة ٠

◆ وانقضت الايام التالية على ضيوف الدار في مرح وتسلية واغان ونزهات، وكان كل شيء يبدو وكانه مرسوم بغرض التقريب بين مستر روشستر والآنسة انجرام ٠!٠ وفي اليوم الذي استدعى فيه السيد للسفر من أجل عمل عاجل وصل الى الدار زائران : أولهما شخص غريب طويل القامة من جزيرة «جمايكا» ، يدعى مستر ميسون ـ وقد قال انه يعرف السيد جيد المعرفة ـ والزائر ، او « الزائرة » الثانية كانت عرافة من الغجريات تقرأ الطالع والغيب ، وقد اصرت على قراءة طالع جميع النساء الموجودات في الدار ، ومنهن أنا !٠٠ وقالت للآنسة انجرام أشياء ساءتها ولا شك ، فقد بدا عليها على أثرها الاكتئاب !٠٠ اما انا فقد وجهت الى اسئلة غريبة واقوالا ايقنت انها لابد

قد وقفت عليها من مصادر اخرى غير «كفى» !٠٠ لكن المفاجاة الكبرى كانت تنتظرنى حين رفعت الغجرية النقاب عن وجهها ، فاذا هى ليست غير سيدى، متنكرا !

وحين افقت من تاثير المفاجاة تذكرت الغريب المدعو مستر ميسون الذى ينتظر لقاء سيدى ، فذكرت امره له ٠٠ لكنه لم يكد يسمع اسمه حتى ابيض وجهه كالموتى وضغط على ذراعى حتى آلمنى ، ثم قال وهو يتهالك فى مقعده وينظر الى بعينين مضطربتين ، ويداه ماتزالان متشبثتين بيدى : « جين ، هذه مصيبة كبرى !٠٠ آواه ياصديقتى ، ليتنى كنت فى جزيرة هادئة معك وحدك ، فى أمان من المخاطر والمتاعب والذكريات التعسة !»٠٠ فسالته : « هل استطيع أن أساعدك فى شىء ياسيدى ؟» فكان جوابه : « اذا احتجت الى مساعدة فسوف آتى اليك ياجين لاطلبها منك ٠ ترى ماذا تفعلين انت اذاكرهنى الجميع وهجرونى ؟٠٠ فاجبته : « عندئذ يسرنى أن أبقى بجانبك كى أسرى عنك قدر ما أستطيع ٠٠ »

وعندئذ طلب الى ان ادعو مستر ميسون لمقابلته فى غرفة الاستقبال ٠٠

صرخـة فى الليل !

◆ كان القمر ساطعا يضىء الكون حين صحوت من نومى فى تلك الليلة على صوت صرخة وحشية حادة تمزق سكون منتصف الليل !٠٠ فكاد نبضى يتوقف من فرط فزعى ٠ كانت الصرخة صادرة من الطابق الثالث ، وكان يصحبها صوت عراك ٠٠ ثم صوت مختنق يطلب النجدة !٠٠ فارتديت ثوبى على عجل وانا انتفض رعبا وهرعت الى الردهة ، حيث وجدت مستر روشستر يهدىء من ثائرة اهل الدار جميعا ، قائلا ان احدى الخادمات قد اصيبت بكابوس !

لكنه جاء الى فى غرفتى بعد ان تفرق الباقون وطلب الى ان انهض واتبعه ٠ ثم قادنى الى حجرة « جريس بول » ، وهناك رايت ذلك الغريب مستر ميسون راقدا على الفراش وقد ابيض وجهه ، وكم احدى ذراعيه غارق فى الدم !٠٠ ثم رجانى سيدى ان احضر بعض الاملاح وقطعة من الاسفنج واجلس مع المجنى عليه ريثما يذهب هو لاستدعاء جراح ٠

وقرر الجراح ان الاصابات التى بذراع الرجل ليست من فعل سكين بل من تاثير اسنان آدمية !٠٠ وعند الفجر كان الجريح قد ارتدى ملابسه ثم نقل من الدار فى عربة ، بناء على تعليمات مستر روشستر ٠ وعند شروق

الشمس سمعت سيدى ينادينى ، ثم اخذنى الى الحديقة لنتمشى فيها قليلا . وبعد برهة قطف وردة وقدمها الى .. ثم تحدثنا فى امر « جريس بول » ومستر ميسون ، فقرر سيدى أنه لايخشى خطره ، بقدر مايخشى ان يؤدى باهماله الى حرمانه من السعادة مدى الحياة !

وخلال الاسبوعين التاليين لاحظت - لدهشتى - ان سيدى قد كف عن زياراته السابقة المتوالية لدار أسرة « انجرام » ، التى لم تكن تبعد عنا غير عشرين ميلا !.. ومع ذلك فانى كلما حاولت ان افكر فى المستقبل ومايحمله فى طياته من نذر الفراق والحسرة - واكثر ماكان يداهمنى هذا الشعور كلما استدعانى سيدى الى حضرته ، فى مناسبات اخذت تتكاثر يوما بعد يوم ! - كان يطبق على قلبى شعور من الكآبة والانقباض ..!

ذلك برغم أنه ضاعف من عطفه على ورقته نحوى .. وضاعفت انا من حبى اياه !

الحب لا يعرف الفوارق !

◆ وازدهر الربيع فى انجلترا ازدهارا رائعا .. وذات أمسية من أمسياته الصافية هبطت الى الحديقة لارتاض فيها قليلا ، وكان عطر الياسمين والورد يختلط فى الهواء برائحة « سيجار » مستر روشستر ، الذى كان جالسا يرقب فراشة تعلقت بساق نبات عند قدميه . وحاولت أن أتجنب سيدى ، لكنه نادانى فى هدوء : « جين ، تعالى وانظرى الى هذه الفراشة » .. فاطعته وقد انعقد لسانى ، كما كان يحدث لى دائما فى مثل هذه « الازمات » ..!

وابتدرنى مستر روشستر بعد برهة :

- جين ، لابد انك قد تعلقت بهذه الدار ..؟
- بالفعل ياسيدى ..
- هل يؤسفك أن تذهبى ؟
- بلا شك ..
- واحسرتاه (وتنهد)
- وهل يجب على أن اذهب ؟
- اخشى أن يكون الامر كذلك ياجين !
- اذن فانت تزمع الزواج حقا ياسيدى ؟

- بالضبط !.. ولعلك تذكرين أنه حينما رشحتنى الشائعات - لاول مرة - للارتباط مع مس انجرام برباط الزواج المقدس ، كنت انت بالذات التى أوحيت بأفضلية افتراقك أنت وأديل عنا !.. ولقد وجدت لك بالفعل عملا كمربية عند إحدى الاسر فى ايرلندة ..

- انها بلاد بعيدة ياسيدى .

- بعيدة عن ماذا ياجين ؟

- عن انجلترا ، وثورنفيلد .. و ...

- وماذا أيضا ؟

- وبعيدة عنك ياسيدى !

وفاضت الدموع من عينى برغمى ، لكنى تجنبت الاجهاش بالبكاء .. ومضينا الى شجرة جوز الهند الضخمة التى فى طرف الحديقة .

- تعالى ، فلنجلس هنا الليلة فى هدوء ونتحدث فى تفصيلات الرحلة ..

لكن قلبى كان مفعما بالمشاعر بحيث كان من المخاطرة أن اعرض نفسى لحرج الاجابة على أسئلته !.. وكان البلبل يغرد فى الغابة ، وجسمى كله ينتفض أسى وحسرة .. لكنى تمالكت نفسى اخيرا وحدثته عن أسفى لفراق المكان الذى مارست فيه متعة التبسط فى الحديث مع ذهن عارم الحيوية والنشاط !.. ولكن ، اذا لم يكن بد من هذا الفراق الذى تحتمه الضرورة - فى صورة عروسه - فليكن ماتحكم به الاقدار !

- عروس ! عروس !.. ليست لى عروس !

- ولكن سوف تكون لك واحدة ..

- نعم ، سوف تكون لى .. سوف تكون لى !.. (وصر على أسنانه غيظا) لكنك يجب أن .. أعنى تستطيعين أن تبقى .. اقسم لك !

فاجبته وقد انتفض كيانى بالعاطفة الجياشة : « كلا ، بل يجب أن أذهب !.. هل تعتقد انى استطيع ان أبقى كى أصبح بالنسبة اليك لاشىء !؟... هل تحسبنى دمية بلاشعور ؟ أم يخيل اليك - لانى فقيرة من المال والجمال - أننى مجردة أيضا من الروح ، والاحساس ؟.. لو أن الله كان قد منحنى مالا وجمالا لجعلت فراقنا صعبا عليك كما هو صعب الآن على !.. ان روحى هى التى تخاطبك الآن ، اذ تقف - أمام الله - على قدم

المساواة مع روحك !

– نعم ، نحن متساويان الآن .. هكذا ياجين ، هكذا !

وراح يكرر العبارة الاخيرة وقد اختطفنى بين ذراعيه ، وضمنى الى صدره .. والصق فمه بفمى !.. بينما رحت اهتف وانا اتململ فى احضانه :

– دعنى !.. دعنى !..

– جين ، استكينى بين ذراعى .. كفى عن هذه المقاومة

– دعنى !.. دعنى اذهب ..!

– الى اين ياجين ؟ الى ايرلندة ؟

– نعم الى ايرلندة ... الى اى مكان .. بعد ان افرغت فى اذنيك كل ماكان يعتمل فى قلبى .

– انى اقدم لك قلبى .. بيتى .. حياتى !

– انك لاتعنى ماتقول !

– بل اعنيه .. اريدك ان تعبرى رحلة الحياة الى جانبى ، وتكونى الى جانبى على الدوام .. اريدك زوجة لى !.. انت وحدك التى ابغى الزواج منها .. جين ، هل تقبليننى زوجا ؟

لم اجب .. لم استطع ان اصدق انه يعنى حقا مايقول !

– هل ترتابين فى ياجين ؟ الا تثقين بى ؟ جين ، انت التى احبك ! لقد قلت لمس انجرام – كذبا – اننى فقدت كل ثروتى . وهى لم تكن تريد غيرها !.. كلا ، لن اتزوجها ، لن استطيع !.. انت التى احبك ياجين .. اتوسل اليك ان تقبلينى زوجا !

– انا ! التى بلا صديق فى الوجود – غيرك ! – ولا مال غير المال الذى تعطنيه ؟

– جين ، قولى نعم ... اسرعى !

رفعت عينى الى وجهه ، الى عينيه .. كان بادى الانفعال .. وسألته :

– سيدى ، اتريدنى حقا ان اكون زوجتك ؟

– نعم ، اقولها بجماع قلبى !

– اذن ، فساكون زوجتك ..

ـ اصنعى سعادتى وأنا ساصنع سعادتك .. ولاتدعى انسانا يفـرق بيننـــا !

ـ لست أعرف انسانا يستطيع ذلك !

وجلست اليه ، وخده على خدى ، وفردوس الوصال قد حـــل مكان كابوس الانفصال !.. ولم احس بعنف انفعاله . كانت السعادة تتملك كيانى كله وتستغرقنى .. بينما راح هو يغمغم ، كانما يخاطب نفسه : « لقـد وجدتها بلا صديق ، متعبة فى رحلة الحياة ... انها ســوف تكفر لى امام محكمة الله .. ولسوف أصونها ، واحبها..وسوف يفهمنى الله ، ويغفرلى ! .. اما آراء البشر ، فانى اتحداها ! »

.. وفيماكان يغمغم لنفسه بهذه الهــواجس ، كانت شرارة داكنة من البرق تشق الفضاء ، تتبعها سيول المطر والسنة العاصفة !.. وحين عـدنا الى داخل الدار قبلنى متمنيا لى ليلة طيبة .. وفى الصباح التــالى هرعت الصغيرة اديل الى تقول ان شجرة جوز الهند العتيقة التى فى اقصى الحديقة قد صعقتها الصاعقة !!

السر الرهيب !

◆ وقبيل موعد زواجنا بليلتين ، ازعج نومى كابوس رايت فيـه دار « ثورنفيلد هول » خاوية على عروشها ، كطلل بال تسكنه البوم والغربان !.. فاستيقظت مفزوعة لاجد فى مخدعى امراة تحمل شمعة ، تتامل على ضوئهـا الثوب الذى أعددته لزفافى والنقاب الابيض الخاص به !..

لم تكن المراة مسز فيرفاكس ، ولاالخادمة ، ولا حتى « جريس بول » .. وانما كانت امراة كبيرة الجسم ذات شعر غزير فاحم ، ترتدى ثوبا أبيض . ورايت وجهها « المتوحش » منعكسا فى المرآة ، شاحبـا ، متورما ، ببشرته الارجوانية وعينيه الحمراوين !.. وعلى حين غرة تناولت المراة المجهـولة نقاب الزفاف فوضعته فوق راسها ، ثم رفعته ومزقته غاضبة شر ممـزق ، ووطاته بقدمها فى حنق !.. وعلى اثر ذلك استدارت المراة الضارية نحـوى واقبلت فانحنت بجذعها على..وعند هذا افقدنى الرعب وعيى فغبت عن الصواب !

وفى الصباح رويت القصة بحذافيرها لمستر روشستر ، فقال لى تعليقـا عليها : « شكرا لله لان الضرر لم يتجاوز النقاب .. لابد انها جريس بول !»

.. ثم وعدنى بأن يصارحنى ـ بعد مضى عام على زواجنـــا ـ بسبب احتفاظه بهذه المرأة فى بيته !!

◆ وحل يوم الزواج ، وما أعتقد أن عريسا كان متلهفا على زفافه ، نافد الصبر ، ممانعا فى أدنى تاجيل ، مثلما كان روشستر فى ذلك اليـــوم ! .. كان مقررا أن يتم الاحتفال فى الكنيسة الواقعة خلف أســوار ثورنفيلد ، دون حضور غير نفر قليل : مؤلف منا ، ومن القسيس « مســتر وود » ، ومسجل الكنيسة ..

وفى الموعد المحدد مضينا الى وجهتنا ، وأثناء دخولنا لمحت رجلين غريبين لم أتعرف عليهما من بعيد ، يراقباننا .. وحين دخلنا تبعانا ، فلم نلق اليهما بالا .. وبدأ القسيس مراسمه الدينية ، حتى وصل الى المرحلة التى يوجــه الينا فيها هذه العبارة التقليدية : « هل لدى أحدكما علم بأى عائق يمنــع من عقد زواجكما شرعا ؟ » .. وعندئذ تقدم أحد الغريبين نحو القسيس ، ثم قرر بصوت جهورى واضح ان هناك عائقا لاسبيل الى تخطيه ، يحــول دون عقد الزواج !!

فلما طلب من الرجل أن يفصح ، استطرد فى ثبات : « ان مســتر روشستر متزوج فعلا ، وزوجته ماتزال على قيد الحياة ! »

شحب وجه روشستر حتى صار يحاكى وجوه الموتى ، بينما لمعت عيناه غضبا ، وجذبنى اليه بقبضته القوية .. كانما ليحمينى من عدوان الاقـدار ! .. ثم قال فى لهجة تنطق بالاسى والياس : « أيها السادة ، ان خطتى قــد احبطت .. فاغلق كتابك أيها القس وخذ مساعدك المسجل وانصرفا ، فلن يكون زفاف اليوم ! .. ان ماذكره هذا المحامى وموكله حقيقة واقعة ، واحسبك قد سمعت ولابد يامستر وود شيئا من الشائعات عن المخبولة الغامضة السجينة فى دار ثورنفيلد هول ! .. انها زوجتى ، التى تزوجتها منذ خمســة عشر عاما ، وتدعى « برتا ميسون » .. وهى شقيقة هذا الغريب الآخر الــذى ترونه امامكم ، والذى كان هدفا لاعتــداء وحشى من جانبها منذ نحــو ثلاثة أشهر ! .. ذلك ان برتا ميسون مجنونة ، وقد انحدرت من أسرة يتفشى بين أفرادها الجنون .. وأنا أدعوكم جميعا الى بيتى لتزوروا زوجتى المذكورة ، الموضوعة فى رعاية ممرضتها الخاصة « جريس بول » !

فرار .. تحت جنح الظلام !

◆ وفى غرفة « جريس بول » ، راينا المراة المخبولة ـ التى مزقت نقاب زفافى فى تلك الليلة ! ـ تروح وتجىء فى انحاء الحجرة كالوحش المفترس الحبيس فى قفص ... وبمجرد دخول روشستر هجمت المراة عليه فلفت قبضتها على رقبته فى وحشية وغرست اسنانها فى لحمه !.. لكنه استطاع أن يتخلص من قبضتها ويقيدها الى أحد المقاعد بحبل .. ثم استدار الى « المتفرجين » وقال يائسا : « هذه زوجتى ..! »

فى تلك الامسية جلست أقلب الامر على وجوهه .. فقال لى عقلى : « غادرى ثورنفيلد فورا ! » .. لكن قلبى ناضل بشدة ضد هذا القرار القاسى !.. ثم جاءنى روشستر وفى عينيه نظرة ندم واستغفار ، وسرد على قصته التى حفلت بالكثير من التفصيلات المبررة لمسلكه معى ، وكتمانه الحقيقة عنى طيلة المدة السابقة .. بحيث وجدتنى فى النهاية أصفح عنه راضية ..

وعلى أثر ذلك حاول بكل قواه أن يقنعنى بالسفر معه الى مكان قصى نستطيع فيه أن نعيش سويا ونتعم بحبنا العظيم .. ورغم الالم الذى احسسته وأنا أرفض فكرته بكل اباء وتصميم ، فان كل محاولاته لتحطيم الحاجز الذى أقمته بينى وبينه ـ من ضميرى وعفتى وصلابة أخلاقى ـ قد باءت بالفشل .. وانتصب أمام تقديرى واجبى الذى لامحيد عنه ، والذى يتلخص فى كلمة واحدة : الرحيل !

◆ وفى فجر اليوم التالى فررت من الدار قبل أن يصحو أحد من الخدم .. ودفعت آخر « شلن » كان فىحوزتى للحوذى الذى اقلنى بعيدا عن مسرح مأساتى وعذابى .. ثم قضيت أياما أتجول على غير هدى فى الاحراش والغابات ، حيث أنزلنى الحوذى بعد أن استنفد أجره ، حتى ألجأنى الجوع الى التسول .. ونال منى التعب والاجهاد والياس كل منال .. وأخيرا قادتنى العناية الالهية عبر الاحراش الى بيت قبل أصحابه ان يأوونى !

وسقطت منفورى فريسة لحمىقاسية ، افقت منهابعدأيام لاتعرف على أرباب نعمتى ومنقذى ، وكانوا ثلاثة : قسيس يدعى سان جون ريفرز ، وشقيقتاه ديانا ومارى .. وقد استجاب الثلاثة فىكرم وشهامة الى رغبتى فى كتمان تفصيلات محنتى السابقة . بل انى زعمت لهم أننى أدعى « جين اليوت »

.. ولم يلبث القسيس ان حصل لى على وظيفة متواضعة كناظرة لمدرسة ابناء الفلاحين التابعة لكنيسته ، بمرتب زهيد قدره ثلاثون جنيها فى العام !

.. وفى وقت فراغى كنت القن الشقيقتين اللطيفتين ديانا ومارى اصول الرسم بالالوان ..

وذات يوم فاجاتنى الاقدار بمفاجاة كبرى مثيرة : فقد جاءنى القسيس يقول ان قريبا لى قد مات فى بلاد نائية وترك لى ثروة تبلغ عشرين الفا من الجنيهات !

رباه !.. احقا اصبحت املك هذه الثروة ؟

صوت .. من الاعماق !

◆ واقترب موعد رحيل القسيس فى بعثة تبشيرية ببلاد الهند .. وذات يوم فاجانى مفاجاته الثانية : طلب الزواج منى !.. وفى غمرة حيرتى بين اجابته الى طلبه ، عرفانا بجميله على ، وبين الاستجابة لنداء قلبى الذى لم ينس بعد حبه القديم .. جثوت اصلى ، مناشدة السماء ان ترشدنى الى الطريق الصائب !

وتزايدت سرعة دقات قلبى .. ثم هدات ، بحيث خلتها توقفت !.. وسمعت صوتا مالوفا لدى يصيح : « جين ! جين ! جين ! » .. فرتفت كالماخوذة : « اواه يا الهى !.. ماهذا !؟».. فقد كان الصوت صوت روشستر ، فاجبته وانا اندفع الى الباب ، متجهة نحو الحديقة : « هانذا .. انى قادمة .. انتظرنى !»

لكن الحديقة كانت خالية من اى انسان !.. وادركت ان الصوت لم يكن غير هاتف داخلى ، او وحى غامض !.. وعند الفجر خرجت من ماواى الى حيث ركبت عربة حملتنى الى ثورنفيلد ، وقد شعرت كانى اطير بجناحى حمامة زاجلة ، نحو دارى وموطنى !.. وباية مشاعر استقبلت الاشجار التى عهدتها ، والغابات ، والاحراش ؟.. وتوقفت عن العدو امام اسوار القصر الكبير .. ولكن ـ كما يحدث للعاشق الذى يدبر التسلل الى فراش محبوبته وهى نائمة ، فيجدها ميتة ! ـ حدث لى انا ايضا .. فقد طالعتنى دكان الدار الفارهة .. اطلال سوداء ، متآكلة ، مفزعة ، كجمجمة ميت !!

◆ وعدت الى الحانة القريبة اسال صاحبها :

ـ أمايزال مستر روشستر يعيش فى « ثورنفيلدهول» ؟

ـ كلا ياسيدتى ، أوه ، كلا !٠٠ لاأحد يعيش هناك الآن ٠٠ لقد احترق القصر فى الخريف الماضى ٠ كان منظرا مروعا ، شهدته بنفسى !

ـ أو لم يعرف كيف شبت النار ؟

ـ لقد استنتجوا السبب استنتاجا ياسيدتى ٠ كانت فى الدار امرأة مخبولة ، عهدوا بحراستها الى ممرضة خاصة كانت مولعة بشراب «الجين» ، فكانت تفرط فى تناوله بين الحين والآخر ٠٠ فلايكاد يستغرقها النعاس من تأثيره حتى تأخذ المخبولة المفاتيح من جيبها وتروح تجوس خلال الدار على هواها ٠٠ وفى تلك الليلة عمدت الى اشعال الحجرة المجاورة لمخدعها ولمخدع المربية السابقة ٠

ـ وهل كان مستر روشستر فى البيت حين اندلعت النيران ؟

ـ نعم ، وقد أيقظ الخدم وأخرجهم من حجراتهم ، ثم ذهب ليخرج زوجته المجنونة ٠٠ لكنها تسلقت النافذة ، ولم تكد تراه يدنو منها حتى اطلقت صرخة مروعة ٠٠ وألقت بنفسها الى الهاوية ، فدق عنقها للحال !

ـ ومستر روشستر ، هل أصيب بسوء ؟

ـ نعم ، أصيب المسكين بالعمى ٠٠ فقد سحقته الانقاض المنهارة ، ففقأ أحد الاعمدة الخشبية عينه اليسرى ، ثم بترت ذراعه ٠ ولم تلبث العين الاخرى أن التهبت ففقدت بصرها بدورها !

ـ وأين هو الآن ؟٠٠ أين يعيش ؟

ـ فى منزل منعزل بناحية ((فرندين)) ، على بعد نحو ثلاثين ميلا من هنا

السيد ٠٠ يعيش فى الظلام

◆ ويممت من فورى شطر فرندين ٠٠ فبلغتها قبيل الغروب ٠ ووجدت المنزل المقصود مدفونا فى قلب غابة صغيرة ، وقد بدا ساكنا لاتبدو عليه مظاهر الحياة ٠٠ ولكن فجأة فتح بابه الامامى وبرز منه ، فى ضوء الاصيل ، شخص يتحسس طريقه ٠ ومد يده الى الخارج ليرى ان كانت السماء تمطر ٠٠؟

وعرفته من فورى ٠ انه سيدى مستر روشستر !٠٠ لكن سحنته قد تغيرت ، دمغها اليأس بطابعه !٠٠ ورأيته يتحسس طريقه عائدا الى داخل البيت ، فتبعته ٠٠ واستأذنت مديرة البيت فى أن أحمل اليه ، حيث جلس ،

صينية عليها قدح وابريق به ماء ٠٠ وقلت اخاطبه :

ـ هل تبغى قدحا من الماء ياسيدى ؟

ـ من هذا ؟ من الذى يتكلم ؟

واندفع الى الامام ، فتناولت يده الممدودة ٠٠ واذذاك صاح منفعلا :

ـ انها أصابعها بالذات !

ـ وهذا صوتها ٠٠!

ـ جين اير !٠٠٠ جين اير !

ـ سيدى العزيز ٠٠ هانذا عدت اليك !

لكنه غمغم فى اسى :

ـ وقواى المبتورة ، وبصرى المختوم ؟٠٠ انى لست خيرا من شجرة جوز الهند العتيقة التى اصابتها الصاعقة !

ـ ٣ ـ

◆ **لكنى** تزوجته !٠٠ فى أقرب كنيسة عقدنا قراننا فى هدوء ، بعد ثلاثة أيام !٠٠ وها قد انقضت علينا عشرة أعوام ، وليس فى الوجود امرأة أسعد منى ٠٠ أما زوجى فقد دنا منى ذات صباح ـ بعد عامين من زواجنا ـ وابتدرنى بقوله :

ـ جين ، أهناك شىء يلمع فوق رقبتك ؟

ـ نعم ٠٠

ـ وهل ترتدين ثوبا أزرق ؟

ـ بالضبط !

وفاجأنى بأن عينه اليمنى التى أصابها الالتهاب قد بدأت تبصر ٠٠ فهرعنا الى لندن حيث استكملنا العلاج ، حتى ارتد للعين بصرها كاملا !

ولم يعد زوجى يعيش فى الظلام !٠٠ انه لا يقوى على القراءة أو الكتابة طويلا ، لكن فى وسعه أن يتبين طريقه بغير أن أقوده من يده ٠٠ وقد عادت السماء زرقاء أمام ناظريه ، وبات يستطيع أن يرى الحشائش الخضراء ٠٠ وبقلب مفعم ايمانا وشكرانا أدرك مدى ما تتسع له رحمة الله !

بيبسى كولا
PEPSI COLA
حمام منعش
ومشروب أنعش!
S.P.M.O
معبأة بالشركة الوطنية المصرية لتعبئة الزجاجات ش.م.م

محتويات الكتاب

الموضوع	صفحة
ذنوب الآباء : قصة مصرية للمحرر	٥
الخالدات : من قصص شهيرات النساء	١٤
الملاك الابيض : فلورنس نايتنجيل	١٥
كتب الاولون : كنوز الكتب القديمة	٤٠
غرام الاخوين : قصة من الادب الفرعونى	٤١
حوافز الحياة : النفس والجنس والمجتمع	٥٦
فن الحب : للكاتب الكبير اندريه موروا	٥٧
الجريمة والعقاب : المحاكمات الكبرى فى الماضى والحاضر	٧٦
محاكمة « آن بولين » : ابشع جرائم الملك زير النساء ...	٧٧
اقرأ معى : كتاب الشهر	٨٦
آراء جريئة فى السياسة : لفيلسوف العصر « برنارد شو »	٨٧
حدث ذات يوم : من قصص التاريخ ومآسيه	١٢٢
عشيقة نابليون : مارى فاليفسكا	١٢٣
الحياة قصة : روائع القصص العالمى	١٥٤
جين ايـر : القصة الخالدة لشارلوت برونتى	١٥٥

ايضــاح

بعد اعداد غلاف هذا العدد للطبع رأينا ابدال « اعترافات تولستوى » الوارد ذكرها فيه ضمن محتويات الكتاب بقصة « محاكمة الملكة آن بولين » التى منع نشرها فى (كتابى) فى العهد السابق .

كتابى
السابع

محتويات الكتاب

ذنوب الآباء : قصة مصرية للمحرر • الملاك الأبيض : فلورنس نايتنجيل - من قصص شهيرات النساء • غرام الأخوين : أول قصة كتبت فى العالم (على أوراق البردى) من كنوز الأدب الفرعونى القديم • فن الحب : كتاب ممتع للكاتب الفرنسى الكبير "اندريه موروا" • جين إير : من روائع القصص العالمى ، للروائية الخالدة "شارلوت برونتى" • كتاب الشهر : آراء جريئة فى السياسة ! - للفيلسوف الساخر "برنارد شو" • عشيقة نابليون (مارى فاليفسكا) - من قصص التاريخ الشائقة • اعترافات تولستوى : من قصص العباقرة فى حياتهم الخاصة

... الخ ...